موقف الدين من العلم

الدكتور علي فؤاد باشكيل
عضو محكمة لاهاي الدولية
والاستاذ في جامعة استانبول سابقاً

ترجمة
أورخان محمد علي

الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



موقف الدين من العلم

الدكتور علي فؤاد باشكيل
عضو محكمة لاهاي الدولية
والأستاذ في جامعة استانبول سابقاً

ترجمة
أورخان محمد علي

الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



نبذة عن حياة المؤلف

١ ــ ولد في مدينة « صامصون » سنة ١٨٩٣م .
٢ ــ بعد اكماله الدراسة الابتدائية التحق بمدرسة بوفن Buffon الثانوية في فرنسا .
٣ ــ درس الحقوق في جامعة غرينوبل Grenoble في فرنسا .
٤ ــ حصل سنة ١٩٢٨ على الدكتوراة في « الحقوق الدستورية » ، وكان أول تركي يحصل على هذه الشهادة .
٥ ــ عاد الى تركيا سنة ١٩٢٩ وعمل مساعداً لمدير التعليم العالي بوزارة المعارف التركية .
٦ ــ انتقل بعد ذلك الى كلية الحقوق في انقرة حيث درس مادة « الحقوق الرومانية » .
٧ ــ يعتبر من مؤسسي كلية الحقوق في استانبول وفي أنقرة .
٨ ــ في سنة ١٩٣٩ رقي الى درجة « اورديناريوس بروفسور .Ordinarus Prof » .
٩ ــ شغل عدة مناصب ادارية وعلمية منها مدير كلية التجارة والاقتصاد ، وعميد كلية الحقوق وعضو في محكمة لاهاي الدولية .
١٠ ــ اشترك في المؤتمر الاسلامي المعقود في كراتشى سنة ١٩٥٢م والمؤتمر الاسلامي المعقود في القدس عام ١٩٦٠م .
١١ ــ بعد الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكم عدنان مندريس في ٢٧ أيار سنة ١٩٦٠ ، قام قادة الانقلاب بفصله من الجامعة ، ثم اعتقل وسجن في زنزانة السجن الحربي في استانبول ، ثم نقل الى سجن الحكم العرفي في « بال موجو Bal mumcu »
١٢ ــ بعد خروجه من السجن رشح نفسه في الانتخابات التي جرت سنة ١٩٦١ لانتخاب مجلس الشيوخ عن مسقط رأسه « صامصون » فنجح .
١٣ ــ رشح نفسه لانتخابات رئاسة الجمهورية فكان اقوى المرشحين ، وكان فوزه شبه مؤكد ، مما حدا بالعسكريين الى تهديده واجباره على الانسحاب .
١٤ ــ توفي في شهر نيسان سنة ١٩٦٧ ، وشيعت جنازته من قبل الآلاف من الطلبة الجامعيين ودفن في مقبرة « قارا أحمد » .

الفهـــرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم :

بعد عصور طويلة من الانحطاط الحضاري ، صحا العالم الاسلامي على ضجة الحضارة الغربية وهي تطرق أبوابه ، وتقتحم دياره .

كانت الهزيمة مرة بلا شك ، وكانت هزيمة شاملة في الوقت نفسه . . هزيمة عسكرية وسياسية وفكرية واقتصادية وعلمية . . وباختصار كانت هزيمة حضارة أمام حضارة اخرى ، وكانت الهزيمة من القوة والشمول بحيث ان العالم الاسلامي أصيب بزلزال نفسي عميق ، وكانت النتيجة انه فقد الثقة بنفسه وبمبادئه وبماضيه وأصيب بحالة اعجاب شديد وانبهار بهذه الحضارة القوية الزاهية ، لذلك فقد كان من الطبيعي والبديهي أن تنتقل مفاهيم كثيرة من العالم الغربي صاحبة هذه الحضارة الى العالم الاسلامي المغلوب ، من دون اي تمحيص فكري ، بل كنتيجة متوقعة لإعجاب المغلوب بالغالب ، ونتيجة الهزيمة النفسية التي ترافق الهزيمة الحضارية عادة .

من هذه المفاهيم موقف العلم من الدين ، فمع أن العالم الاسلامي لم يعرف محاكم التفتيش ، ولم يعرف في تاريخه معاداة العلم والعلماء ، ولا تكفير نظرية علمية ، إلا ان مثل هذه الشبهات راجت لدى الكثيرين عندنا . والغريب أن الأفكار التي كانت سائدة في الغرب قبل نصف قرن او أكثر هي التي تسود عندنا الآن ، وبعد أن تكون هذه الافكار قد اهترأت في موطنها نرى ان مدعي التجديد الفكري يتبنونها عندنا .

ومن سوء حظ هؤلاء المقلدين انهم لم يحرزوا الشهرة التي كانوا يأملونها من

ترديدهم لهذه الأفكار كما حصل بالنسبة للمفكرين الذين نادوا بها في الغرب لعدة أسباب اهمها على ما نعتقد هي :

١ ــ إن المقلد لا يكون كالأصيل من ناحية التأثير ، ومكررو ومرددو هذه الأفكار عندنا غير أصلاء في أي فكر ، بل هم مرددون ، وناقلون فحسب ، وفي كثير من الأحيان مرددون دون فهم كاف ، وناقلون غير أمناء .

٢ ــ لا يوجد من بين هؤلاء شخص واحد اعتبر قمة في الفكر أو الأدب ، بل العكس هو الصحيح ، فالقمم البارزة في الفكر والأدب في العالم الاسلامي كانت للمفكرين المسلمين ، ففي مصر كان عباس محمود العقاد هو عملاق الفكر والأدب ، وفي باكستان كان محمد اقبال وأبو الأعلى المودودي ، وفي تركيا كان نجيب فاضل وعلي فؤاد باشكيل (مؤلف هذا الكتاب) والمفكر الموسوعي بيامي صفا وبديع الزمان سعيد النورسي . وفي الجزائر مالك بن نبي وكل هؤلاء المفكرين أفحموا كل من تصدى للهجوم على الاسلام ، والمعارك الفكرية التي خاضوها خير شاهد على الفرق الكبير بين مستواهم الفكري والثقافي وبين مستوى معارضيهم . والاوساط الفكرية في تركيا تتذكر جيداً الهزيمة المرة التي لقيها الشاعر التركي الماركسي ناظم حكمت عندما تصدى له قلم بيامي صفا ، والمعارك التي خاضها الاثنان والتي انتهت بانسحاب ناظم حكمت مغلوبا على أمره مسجلة نصاً ومجموعة في كتاب مستقل ، وكذلك كانت نتيجة المعركة الفكرية التي نشبت بين « بيامي صفا » والكاتب اليساري التركي « عزيز نسين » .

٣ ــ إن جميع الاتهامات التي كان المفكرون الغربيون يوجهونها للدين المسيحي وللكنيسة لا وجود لها هنا . وهذا موضوع طويل لا مجال لشرحه هنا .

□ □ □

إن العنوان الاصليَ لهذا الكتاب هو "DIN VE LAIKLIK" اي « الدين والعلمانية » ، وقد قمت بترجمة الفصول المتعلقة بموقف الدين من العلم وأهملت ترجمة الفصول الاخرى وذلك لسببين رئيسين :

١ ــ إن هناك فصول لا تهم القارىء العربي ، فلا فائدة من ترجمتها ، فالمؤلف مثلا يقدم برامج مقترحة لتنظيم مديرية الشؤون الدينية التركية وبيان صلاحياتها .. الخ .

٢ ــ إن المؤلف لم يكن حراً في إبداء آرائه بصراحة حول موضوع العلمانية . وذلك لأن القوانين في تركية لا تسمح بالشيء الكثير في تناول هذا الموضوع . لذا لم أقم بترجمة الفصل المتعلق بهذا الموضوع .

أعتقد أن هذا الكتاب يشارك في مناقشة موضوع مهم لجيل حائر بين تراثه وعقيدته التي قدمت له بشكل مشوه ، وبين حاضر يموج بالأفكار والنظريات .

المترجم

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعـة الأولى لهذا الكتـاب في أوائل صيف ١٩٥٤ ولقيت من القراء إقبالاً كبيراً ، مما شجعني على تقديم الطبعة الثانية .

وكما يعلم القراء فقد حدث نشاط كبير في مجال الدين والقيم المعنوية سواءً معها أو ضدهما في الفترة التي انقضت بين هاتين الطبعتـين وقد اتخـذ الهجوم والاعتداء على الدين وخاصة في الستين الأخيرتين طابعاً شـرساً تجـاوز حدود الاحتمال . فقد قدموا الدين كسبب رئيسي حال دون تقدم تركيا بالرغم من محاولاتها المتعددة ، وقد تناول بعض الشخصيات البارزة موضوع الدين بالرغم من جهلهم الواضح بهذا الموضوع ، وهذا الجهل كان يبدو جلياً من تصريحاتهم العشوائية بهذا الخصوص ، وكأنه لم يبق هناك إلا الدين كي يتناولوه بالتعليق ، لذلك فقد رأيناهم يتكلمون عن الدين وعن القرآن بسذاجة وبسطحية : إذ لماذا لا نقرأ الأدعية والقرآن في المساجد باللغة التركية ؟ ولماذا لا يقرأ القرآن باللغة التركية في الصلاة ؟ ولماذا لا يكون من حق المواطن التركي قراءة القرآن بلغته لكي يفهمه ، خاصة وأن القرآن يخـاطب جميع الأمم والشعـوب والأجناس ؟ أليس من الضروري أن تقرأ كل أمة القرآن بلغتها الخاصة . . الخ

إن مهمة هذا الكتاب هو الإجابة عـن مثل هـذه الأسئلة والكشف عن الهدف الحقيقي من ورائها ، وكيف ان الهدف الحقيقي من ورائها ليس البحث عن الحقيقة وإنما هي ذريعة لإطفاء نـور الإيمان ولقلع الـدين والمقدسـات من جذورها .

ولمن يريد البحث في هذا الموضوع نقول : إن كل دين يملك لغة عبادة ودعاء خاصة ببنيته . أما لغة الإسلام فهي لغة القرآن ، ولو حاولت أن تترجم القرآن إلى لغة أخرى وأن تقوم بإيفاء العبادة بتلك اللغة ذهبت قدسيته وقضى على الدين ، لذلك فإن الحفاظ على لغة القرآن كلغة عبادة ودعاء معناه الحفاظ على الإسلام .

والشيء الذي يدعو إلى الاستغراب حقا في هذا البلد هو إن كثيرا من مدعي الثقافة يرون أنهم يملكون صلاحية كبرى في التحدث عن الدين وعن الإسلام ، لذا نراهم يتكلمون ويكتبون بثقة المختصين ، ولا يكتفون بهذا بل يقومون بتوجيه الاهانات للمواطنين المتدينين وإيذاء مشاعرهم . والمعتدلون من هؤلاء يرون أن عصرنا هذا هو عصر العلم وعصر التكنيك ، لذا فإن العلم وحده يجب ان يتكلم في هذا العصر ، أما الأسطورة التي تدعى بـ « الدين » فيجب ان تدفن بين طيات التاريخ .

صحيح إن كلمة العلم اليوم هي أكثر الكلمات المقبولة والموثوقة بها ، فلو أنني ترددت أيهما أكثر فعالية الأكسجين أم الهيدروجين فإنني سأراجع العلم في هذا الموضوع ، كما أنني سوف أطرق باب العلم عندما أريد أية معلومات حول الفيزياء أو الكيمياء أو الأحياء أو الفلك ، وسوف أعتبر أجوبة العلم حول هذه الأمور حقيقة اثق فيها ، ولكني لا أطرق باب العلم أبداً عندما تكون أسئلتي حول الله أو الآخرة أو الروح ، بل سأراجع القرآن والحديث وكتب المفسرين والمجتهدين الذين يفسرون لنا في هذه المصادر مثل هذه الأمور .

ذلك لأنني أعلم أن الحقائق حول الله والآخرة والروح إنما هي حقائق خارجة عن حدود العلم التجريبي ، لأن ساحة المعرفة للعلم هي ساحة الأشياء

والمواد المحسوسة التي يمكن قياسها ووزنها ، بينها الحقائق المتعلقة بالله وبالآخرة وبالروح حقائق منزهة عن المادة وتسمو على المحسوس ، فإذا حدثني أحدهم - بالرغم من هذا - عن الله والآخرة والروح قائلا لي : بما أن العلم لا يبحث هذه الأمور ولا يبرهن عليها بطرقه الخاصة إذن فلا يمكن اعتبارها حقائق . . . إذا قال لي أحدهم هذا فإنني سأقول بأنه يهذي . وإذا جاءني مشتغل بالعلم ليقول لي : إنني قمت بوزن شخص قبل وفاته وبعد وفاته بدقة فلم أجد فرقاً بين الوزنين ، لذا فلا وجود لشيء اسمه الروح لأنه لو كان موجوداً لكان هناك فرق بين الوزنين . . فإنني لا أملك نفسي من الضحك ، ذلك لأن الروح ليست شيئا يمكن وزنه لأنه جوهر "Substance" للحياة أو هو طاقة "Energie vitale" أو قدرة الحياة ، وهذه الأشياء اللامادية لا تقبل الوزن ولكنها تفرض نفسها ووجودها على وعينا ، ومع أننا لا نجد فرقاً في الوزن في مصباح كهربائي بين حالتي الانطفاء والاشتعال إلا أننا نسلم بوجود طاقة أو قدرة غامضة تخرج من المادة .

وإذا جاءني شخص يعمل في ساحة العلم ليقول لي إن عقله لا يستطيع تصور عقيدة البعث بعد الموت ولا عقيدة الآخرة ، فإنني سأقول له : وهل يستطيع عقلك أن يتصور كيف جئت إلى الدنيا ولم تك شيئا . وكيف ستنتهي إلى الفناء غدا بعد الموت ؟ وأليس من الممكن منطقياً - بل من الضروري - ان صاحب القدرة الذي أوجدك من العدم يستطيع أن يبعثك إلى الوجود مرة أخرى بعد موتك وفنائك ؟ واذا كانت هناك حادثتان متماثلتان فان من العناد تصور إمكانية حدوث إحداها ثم تصور استحالة حدوث الأخرى .

وكذلك إذا جاءني من يقول لي أن ما يخبره الدين هو مخالف للعلم ، وكل ما يخالف العلم فليس بحقيقة ، وكمثال على ذلك إذا استشهد بآيات من الكتب

المقدسة التي تتناول قصة خلق العالم ، فإنني لا أتردد في الحكم عليه بالجهل . نعم أن القرآن الكريم ـ ومن قبله التوراة ـ يخبرنا بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق العالم في ستة أيام ، بينما يخبرنا العلم بأن الكون لم يخلق لا في ستة أيام ولا في ستين مليون سنة ، بل كان نتيجة لتطور استغرق مئات الملايين من السنين .

وجوابي على هذا هو إن هذه المسألة مسألة فهم وتفسير ، فالقصد من تعبير « اليوم » في القرآن الكريم ليس هو فترة الأربع والعشرين ساعة بل القصد منه « مرحلة etape » ، أي إن الله تعالى خلق العالم في ست مراحل وفي المرحلة الأخيرة وجد الانسان الذي هو أحسن المخلوقات . أما الزمن الذي استغرقته كل مرحلة فلا يستطيع العلم تعيينه ، إذ لا يعلمه إلا الخالق ، أي إنه من الممكن تأويل أو تفسير ما يخبرنا به الدين من امور فلسفية أو علمية ـ تفسيراً علمياً . أما المسائل الدينية المتعلقة بالعقائد وبعض المسائل المتعلقة بالعمل فهي وحدها التي تبقى خارج حدود علمنا ، والعلم لا يستطيع أن يصدر حكماً في هذه الأمور .

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم مشابهة لمثالنا السالف يعرف معناها أربابها ، فإذا كنت لا أعلم معناها ، فمعنى هذا أنني لست في مستوى فهمها ، وإذا كنت لا أعلم بأنني لا أعلم ، فمعنى هذا أنني شخص جاهل وأحمق إن الكثيرين لا يفهمون النظريات الفلسفية لمفكرين مشهورين أمثال سبينوزا أو طانط أو برغسون أو بلوندال من الذين خاطبوا بأفكارهم قلة قليلة من المثقفين ، فإذا خرج أحدهم وأنكر افكار هؤلاء الفلاسفة ـ لأنه لم يستطع أن يفهمهم ، فاننا لا ننظر إليه إلا كنظرتنا إلى جاهل . وفي القرآن الكريم أسرار كثيرة يجب إعطاء المعاني لها حسب المستوى العلمي والعقلي لكل عهد حيث يقوم « أصول التفسير والاجتهاد » في الاسلام بهذه المهمة .

ونحن لا ندعي أننا قمنا في هذا الكتاب بحل كل هذه المسائل التي ذكرناها ، ولكننا قمنا فقط بإثارتها ودعوة القراء الذين يرغبون في المعرفة إلى وجوب التيقظ والانتباه ، إذ إننا نعلم استحالة إقناع الملحدين المعاندين وجعلهم يسلمون بالحقائق . وهؤلاء الملحدون المعاندون لم يُعودوا اليوم يكتفون بمعارضة الدين في بعض المسائل فقط ، بل هم يعتزمون قلع الدين من جذوره وهم يحاولون إنكار الحقائق الدينية - التي يجهلونها - باسم العلم الذي يجهلونه كذلك ، لذلك فإن الغاية الرئيسية لهذا الكتاب هو الرد على هؤلاء .

وفي السنوات الأخيرة لم يبق هناك هذيان إلا وسمعناه في هذا البلد ألم نر « المجددين » الطفيليين ؟ ألم نصادف اللوثريين الزائفين ؟ ألم نقرأ رسائل وكتباً تفوق هذيان المجانين ؟ ألم يدّع زعامة التجديد في الإسلام من المهرجين من لا يفقه سورة واحدة ؟

والخلاصة إن تركيا اليوم تعيش في فوضى وهرج ومرج في موضوع الدين فهناك الآن من يتكلم في هذا الموضوع من مُدّعي الثقافة والنفوس الضعيفة ويحاول أن يسكت الجميع بصياحه وصراخه ، ونحن في هذا الكتاب نحاول أن نمزق الأقنعة عن وجوه هؤلاء .

إن كاتب هذه الأسطر بعيد من أن يعد نفسه عالماً في الدين ، إلا أنه على الأقل يعلم أنه لا يعلم ، وهو يأمل أن ينجح في أن يطهر نفسه التي أظلمت من ذنوبه الكثيرة بكفاح شديد لهذه النفس .

* * *

لقد كان الانسان في جميع العهود التاريخية محتاجا إلى الدين وإلى القوة المعنوية ، ولكن هذه الحاجة اتخذت في زماننا هذا صفة الضرورة . فأجدادنا

كانوا يستطيعون الاكتفاء سابقا بمعلومات دينية قليلة وبإيمان تقليدي مرتبط بالعادات الاجتماعية ، ذلك لأن البيئة الاجتماعية حولهم كانت تلقنهم الناحية المعنوية ، فالعائلة كانت تعيش في جو ديني ، وكان المجتمع بكامله يتنفس جواً دينياً ، ولكنّ الوضع تغير الآن ، فقد ضعف الشعور الديني وحلت الوقاحة وعدم الاحترام محل التربية الدينية ، لقد ضاق نطاق العائلة اليوم وضعفت روابطها ، ولما كانت تبعة العائلة تقع اليوم على أكتاف الزوج والزوجة فإن الأبوين أصبحا أمام الحاجة الاقتصادية لا يجدان الوقت الكافي لتربية الأطفال تربية دينية . ومن الناحية الأخرى أصبحت المدارس والجامعات مراكز للدعاية ضد الدين . ومما زاد الطين بلة نشاط الملحدين المعاندين والتزييف الذي يقومون به .

في مثل هذا الجو لم تعد المعرفة الدينية البسيطة كافية ، ذلك لأن أسئلة معينة (أمثال : ما هو الدين ؟ وما هي علاقته مع العلم ؟ وما الموقف الذي يتعين على الدين اتخاذه أمام العلم ؟) أصبحت تلح على أذهان العديدين بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . وأصبح الشباب المثقف خاصة بحاجة ماسة ، الى معرفة الأجوبة على هذه الأسئلة ونحن في هذا الكتاب نحاول إشباع هذه الحاجة .

في هذه الطبعة الثانية أضفنا بعض الفصول والملاحق للطبعة الأولى ، وقد وقفنا وقفة طويلة عند موضوع الموقف الذي يجب أن يقفه الدين اليوم من العلم الذي سجل تقدما كبيرا .

ولا أنسى أن أعترف بأن هذا الموضوع بحر كبير ، وأن كتابنا هذا ليس سوى قطرة من هذا البحر ، ولكن الذي يعطينا بعض السلوى هو الأمل في أن لا تكون هذه الطبعة الثانية هي الطبعة الأخيرة . إذ سنقوم إن شاء الله في الطبعة

الثالثة ببعض الاضافات أو بتصحيح أخطائنا في هذه الطبعة . وقد سئل الأديب والفيلسوف الفرنسي المشهور « فولتير » الذي كان في كل طبعة يقوم بإضافات كبيرة إلى مؤلفاته حتى لكأنه يكتبها من جديد . . . سئل : متى ستكون الطبعة الأخيرة لمؤلفاتك ؟ فأجاب : « في يوم وفاتي » . . . جواب جميل . . . نعم فإن الأثر الأخير للانسان الذي يضطر للتعلم من المهد حتى اللحد هو الأثر الـذي يخلفه وراءه يوم وفاته .

* * *

وبجانب الهجوم الذي توسع في تركيا ضد الدين فإن تطوراً كبيراً قد تم أيضاً لصالحه ، وهذا شيء نغتبط له ، فقد انتشرت مدارس « الأئمة والخطباء » في أرجاء بلدنا وبلغ عددها حتى الآن إلى ١٩ مدرسة ، وإضافة إلى هـذا فقد تأسس في استانبول « المعهد الاسلامي » أيضا وذلك بموجب القانون الذي أقر في ربيع سنة ١٩٥٩ .

وقد كانت مدعاة لسروري الكبير أن أرى أن المقترحات والأفكـار التي طرحتها في الطبعة الاولى من هذا الكتاب حول المعهد الاسـلامي تتحقق بعد بضع سنين ، وأنا أعقد أملاً كبيراً على هذا المعهد الذي دخل سنته الثالثة فإذا توفر لهذا المعهد أساتذة مؤمنون أكفاء ومنهجاً جيداً فإنني واثق من انه سيتطور وسيتكامل سنة بعد أخرى ، وسيخرج علماء أكفاء يقومون بإنقاذ تركيا من هذه الفوضى الضاربة أطنابها فيها . قد لا يتيسر لي أن أرى ذلك اليوم ولكنى شديد الأمل في أن بلدي تركيا ستشهد أياماً أسعد من هذه الأيام .

* * *

وقبل أن أختم كلامي أرجو من القراء أن يسمحوا لي بكتابة بضعة أسطر :
لقد أصبحت منذ سنوات هدفاً لكثير من الاهانات لكوني أكتب وأنشر الحقائق المذكورة في هذا الكتاب ، وسجنت وتعرضت لكثير من الأذى وأصبحت هدفاً لعداوة الكثيرين ، وفي شارع الصحافة « الباب العالي » صورني الكثير من الكتاب الجهلاء في داخل البلاد وخارجها في صورة الرجعي ، كما أمطروني بوابل من الافتراءات والأكاذيب ولكني لم أهتم ولم أتراجع ، ذلك لأنني أؤمن بأنه لو وجد خمسة أو عشرة من الرجعيين أمثالي لما سقطت تركيا إلى هذا الوضع البائس ، لما قام الطلاب بضرب أساتذتهم ، ولما قام الأساتذة بتصيد الطالبات . ولما قام بعض رجال الأحزاب وأصحاب الجرائد ببيع الورق المخصص لجرائدهم في السوق السوداء . . . الخ من الأوضاع الشاذة .

ولم تنحصر العداوة المثارة ضدي في هذا النطاق ، بل إنها حرمتني من شرف[1] كان سيغبطني عليه الجميع ، ولم آسف أو أغتم حتى لهذا .

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى حادثة الوقوف أمام ترشيحه لمنصب رئاسة الجمهورية التركية من قبل قادة الانقلاب العسكري .

مقدمة الطبعة الاولى

أصبح الانكار في موضوع الدين « موضة » عندنا منذ مدة ، ولكن لو سألت أحداً منهم : ما هو الدين ؟ لما تلقيت منه جواباً سوى التكرار البيغائي لكلمات بعض الساسة المحترفين . وبالنسبة لهؤلاء فإن الدين ليس سوى ميراثاً توارثته الأجيال من ماض عفن ، وكل ما هو ماض فهو رجعي ، أما التقدمية فهي اللهو والأكل والشرب .

أما الحرية الدينية فإنها وإن كانت إحدى النقاط المذكورة في أهداف الدولة منذ عهد التنظيمات أي منذ أكثر من نيف ومائة سنة ، إلا أنها فكرة لم يهتم بها كثيراً[1] ، إذ لا يوجد اليوم حولها في أيدينا كتاب أو أي بحث جدي[2] ، ولذلك فإن الحرية الدينية عندما تذكر عندنا فإن كل واحد منا يعطيها المعنى الذي يهواه ، فالبعض يرى أن البلد يعتبر متمتعاً بالحرية الدينية طالما أن المساجد مفتوحة للمسلمين والكنائس مفتوحة للمسيحيين والبيع لليهود وطالما أنه لا يوجد إكراه

---

(١) ان الحرية الدينية التي تأتي بمعنى حرية كل شخص في الاعتقاد بالدين او المذهب الذي يتقبله وحريته في ممارسة شعائر وعبادات ذلك الدين دون ان يتعرض لأي تدخل او اهانة او اكراه . . ان هذه الحرية الدينية تأسست لاول مرة بمرسوم « كولهانة » Gulhane Hatti Humayun وتوضحت ورسخت في المرسوم الاصلاحي المشهور سنة ١٨٥٦ (انظر المجلد الاول من الدستور ـ الطبعة الاولى)

(٢) صحيح ان عدة مقالات لكتاب معروفين كانت تظهر في الجرائد والمجلات بين حين وآخر حول هذا الموضوع ، الا انها جميعاً كانت بعيدة عن مستوى التدقيق العلمي بشكل مخجل .

على أي شخص لاعتناق او لعدم اعتناق دين معين . وطالما لا يكره على الذهاب أو عدم الذهاب إلى معبده .

هذا هو مفهوم الحرية الدينية عند البعض ، ولكن إذا سألنا أناساً اختصوا في مثل هذه المواضيع والذين يحاولون الوصول إلى الحقيقة لقالوا إن مثل تلك البلاد لا تتمتع إلا بحرية دينية صورية لا تفيد إلا في خداع المراقبين الأجانب عن الوجه الحقيقي للحرية في ذلك البلد .

إن الحرية الدينية ليست حرية الذهاب إلى المعابد ، فإن الكنائس في الاتحاد السوفيتي مفتوحة للزوار ، مع أنها ـ حسب ما يروون عنها ـ من أكثر البلدان تضييقا على الحرية الدينية .

أن الحرية الدينية تقتضي أن يتمتع الأفراد في موضوع الدين بجميع الحقوق التي يحوزونها وأن يستعملوا هذه الحقوق دون خوف أو وجل . وعلى رأس هذه الحقوق يأتي حق التعليم والنشر والتربية ، وذلك للاهمية القصوى لهذه الحقوق في هذه الايام . هذا هو المقياس الذي يجب أن نأخذه بعين الاعتبار عندما نريد معرفة وجود أو عدم وجود الحرية الدينية في أي بلد من البلدان . فإذا كانت هذه الحقوق تستعمل بحرية ودون قيود وبشكل ملائم للأسس الرئيسية للدين فيمكننا أن نقول بكل اطمئنان إن الحرية الدينية موجودة في ذلك البلد . أما إذا كانت هذه الحقوق تتعرض لضغط أو لتهديد رسمي أو غير رسمي ، قانوني أو إداري ، فإن هذا يعني بكل بساطة ان الحرية الدينية مفقودة في ذلك البلد[3] .

---

(٣) ادرج ادناه نص وثيقة رسمية لكي اوضح مدى الضغط والتهديد الذي كانت الحرية الدينية عندنا ترزح تحته

الوثيقة التاريخية

لذلك فإننا إذا أخذنا الظروف الراهنة بعين الاعتبار فإن المؤشر المهم لوجود أو عدم وجود الحرية الدينية في أي بلد هو استعمال هذا الحق ، وإن العين الفاحصة لترى بكل وضوح بان البلدان التي تعادي الدين تضع حق حرية التعليم والنشر والتربية الدينية تحت ضغط وإرهاب شديدين إلى درجة أن هذا الحق معدوم ، والغاية هي القضاء على الفكر الديني والتربية والخلق الديني واقتلاعه من

الجمهورية التركية

وزارة الداخلية

مديرية المطبوعات العامة

الموضوع : حول حياة النبي محمد

انقرة ١٧ مارس ١٩٤٣

السيد المحترم

تلقيت رسالتكم . ونود أن نبين لكم بأننا لا نشجع بأي شكل من الأشكال النشريات والمطبوعات الدينية التي تؤدي إلى خلق جو ديني داخل البلد وتهيء ذهنية دينية ، إننا نحترم علمكم وفضلكم الذي يسلم بها الجميع ، ولكننا نثق بأنكم لابد وأن تشاطروننا الرأي بان الظروف الحالية لا تتحمل امثال هذه الكتب .

المدير العام للمطبوعات

وداد نديم تور

(كانت مجلة « سبيل الرشاد » قد قامت بنشر كتاب حول النبي محمد (ص) . وقد قامت وزارة الداخلية بمصادرة الكتاب . وعندما قمنا بمراجعة وزارة الداخلية تلقينا هذا الجواب الرسمي من السيد وداد نديم المدير العام للمطبوعات)

. سبيل الرشاد . المجلد ١٢ العدد ٢٨٤

من الواضح من الاجابة الرسمية أن تلك الجهة الرسمية لا تحبذ النشريات الدينية والنتيجة هي إن بإمكان من يريد في تركيا أن يكتب ما يريد ضد الدين وأن يهين رجال الدين كيفما شاء ، ولكن لا يستطيع احد ان يقول شيئا دفاعا عن الدين .

ونفس هذا الوضع موجود في الاتحاد السوفيتي ، فحسب دستورها ، لسنة ١٩٣٦ يحق لكل شخص ان يتكلم أو يكتب ضد الدين كما يشاء أما الدفاع عن الدين فممنوع .

جذوره[٤] . ولنكرر مرة أخرى أن الحرية الدينية لا تعني فقط فتح أبواب المعابد على مصاريعها ، ولا تعني فقط حرية ممارسة الطقوس الدينية ، فهذه لا تعتبر إلا الخطوة الأولى من الحرية الدينية وأبسط أشكالها ، فالحرية الدينية اليوم تعني حرية تعليم مختلف العلوم الدينية دون تضييق وكذلك حرية النشر الديني .

* *

وإذا أتينا إلى العلمانية فإننا نرى بأنها بالرغم من اعتبارها إحدى الفقرات المهمة في دستورنا منذ سنة ١٩٢٨[٥] فإنها لا تزال تعتبر لغزاً بالنسبة لمعظم

---

(٤) في الوقت الذي كنت أكتب هذه الاسطر بدأت الجريدة الباريسية المشهورة « لوموند » بنشر ريبورتاج مسلسل اعتباراً من ١٩٥٤/١/٢١ تحت عنوان « روسيا بعد ستالين » بقلم « هنري شابيرو » ، وقد قرأنا هذه المقالات بدهشة وبعبرة ، وقد تبين لنا أن سياسة العداء للدين والتي اتبعتها بعض البلدان طيلة ٣٥ عاما لم تكن تختلف عن سياسة روسيا البلشفية إلا بمقدار قليل .

(٥) كان دستور سنة ١٩٢٤ مستندا على الأسس الدينية كما كان في العهد العثماني أي كان الدستور يعتبر الدين الاسلامي الدين الرسمي للدولة ، وكان تطبيق الشريعة الإسلامية من مهام الدولة ومن واجباتها . وقد استمر هذا حتى إلى سنة ١٩٢٨ .

وفي سنة ١٩٢٨ تقدم عصمت اينونو مع ١٢٠ من أصدقائه النواب باقتراح تعديل في الدستور ، وقد قبل المجلس هذا التعديل الذي أدى إلى استناد الدستور على أسس علمانية ، ومن جملة هذه التعديلات تبديل المادة رقم (٢) في دستور ١٩٢٤ والتي كانت تنص على : « أن دين الدولة الرسمي هو الاسلام » وكذلك تبديل المادة رقم (٢٦) التي كانت تنص على ان من مهام الدولة : « تنفيذ الأحكام الشرعية » إذ رفعت هذه العبارة ، كما تغير اليمين الذي كان النواب الجدد يؤدونه عند دخولهم الى البرلمان لأول مرة بعد الانتخاب ، إذ كان اليمين سابقا هو : « اقسم بالله » فاصبح اليمين : « اقسم بشرفي »

وبهذه التعديلات اصبحت الدولة في تركية ـ على حدّ زعمهم ـ في وضع محايد بالنسبة إلى الدين ، أي أنها دخلت من الناحية الحقوقية في إطار العلمانية .

المواطنين ، بينما يعلم كل من له أدنى صلة بالقانون الغربي بأن العلمانية في البلدان المتمدنة التي صدرت لنا هذه الفكرة تعني عدم تدخل الدولة في النظام الداخلي أوفي عبادات أو أحكام أو أركان أي مذهب أو دين معروف ومستقر في ذلك البلد ، وتعني كذلك وقوف الدولة موقفا حياديا تجاه هذه الأديان والمذاهب .

وعلاوة على روسيا هناك بعض البلدان التي يضع فيها رجال السياسة أنفسهم موضع فقهاء الدين ؛ لذلك فهم لا يرون أي بأس من تدخلهم حتى في لغة العبادة ، ولم يخجلوا في هذا المجال من إرسال العديد من رجال الدين المحترمين إلى المنفى ، بل لم يتورعوا من إرسال بعضهم حتى إلى حبال المشنقة .

في مثل هذه البلدان نرى أن هؤلاء الساسة يكونون من أعدى أعداء الدين ، وبالرغم من اعلانهم علمانية الدولة فإنهم لا يتورعون من محاولة ربط الدين - بجميع مؤسساته - بنهج سياسته . والخلاصة إننا نواجه الآن فراغا كبيرا في موضوع الإيضاح العلمي والجدي للعلمانية(٦) .

وبعد ذلك وفي سنة ١٩٣٧ ونتيجة للتعديل الذي اجرى على الدستور دخلت الشعارات الستة لحزب الشعب إلى المادة الثانية من الدستور ومن ضمنها شعار « العلمانية » . ولكن هذا التعديل لم يضف شيئاً ذا بال في موضوع العلمانية الى التعديل الذي جرى سنة ١٩٢٨ وانما كان تأييداً للسابق وتقريرا له .

(٦) قبل صدور الطبعة الثانية لهذا الكتاب قرأت في مجلة « الوطن التركي Turk Yurdu » التي تصدر في انقرة ثلاث مقالات متتابعة للبروفسور « عثمان توران » حول موضوع الدين والعلمانية ، وقد وجدت ان كل مقالة من هذه المقالات كانت نتيجة دراسة وبحث عميقين لذلك فانني اوصي القراء بقراءة هذه المقالات .

« مجلة الوطن التركي : الاعداد (٧ - ٨ - ٩) تشرين الأول ، تشرين الثاني ، كانون الأول

وكنت وأنا أرى هذا الفراغ تراودني الرغبة في الكتابة حول هذه المواضيع لتوعية الرأي العام على قدر استطاعتي ولكن الذين عاشوا الفترة السابقة حتى أوائل صيف ١٩٤٥ أي إلى ما بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية! يتذكرون جيدا بأن انتقاد أي تصرف أو أي إجراء لرجال الحكم في تركيا في تلك الفترة وخاصة في موضوع حساس كموضوع الحرية الدينية والعلمانية كان معناه الانتحار دون أية مبالغة . والذي يشك في هذا يستطيع أن يراجع نسخ الجرائد المنشورة في ذلك العهد حيث سيشاهد صورا كثيرة لرجال يصعدون المشنقة بلحاهم البيضاء وذلك من أجل عقيدتهم .

ومرت السنون والأعوام . . . إلى أن وقعت حادثة معينة : ففي تشييع جنازة المرحوم فوزي جاقماق* في نيسان سنة ١٩٥٠ وقعت بعض الحوادث حيث قبض على ٧٠ ـ ٨٠ من شباب الجامعة بتهمة الرجعية وإثارة الفوضى . وقد أثارت هذه الحادثة ضجة كبيرة في المحيط الجامعي . في هذه الاثناء راجعتني الهيئة الإدارية لاتحاد الطلبة في الجامعة . وقد طلب هؤلاء الشباب مني أن ألقي عليهم محاضرة حول الحرية الدينية وحول العلمانية وأن أجعلهم على بينة حول هذه المسائل . ولكني كنت مقتنعا بان الوقت لم يكن ملائما إذ كان محيط الشباب في حالة فوران وغليان لذلك فقد رفضت طلبهم بانتظار سكون العاصفة وهدوء الجو .

ولكن لم تمر سوى أيام معدودات حتى راجعوني مرة أخرى وبإلحاح شديد

* فوزي جاقماق (١٨٧٦ ـ ١٩٥٠) : من أبرز قواد حرب الاستقلال التركي . اشترك في حروب البلقان وجنة قلعة وقفقاسيا وسوريا . أصبح وزيراً للدفاع في حكومة أنقرة سنة ١٩٢٠ ثم رئيساً للمجلس النيابي ، وبعد ذلك بسنوات أصبح رئيسا للأركان العامة حتى سنة ١٩٤٤ . كان معروفا بتدينه ومحبوباً من قبل الشعب .

قائلين : « لقد جئنا إليكم بعد أن قطعنا وعداً لمئات من أصدقائنا الشباب بأننا سنلبي رغباتهم . إننا في لهفة لأن تعطونا معلومات في هذه المسائل التي منعوا عنا تعلمها . . نحن طلبة وانت استاذ ، ونحن ندعوك لان تقوم بوظيفتك كاستاذ .

وأمام هذه الدعوة لم يكن هناك أمامي سوى الاستجابة لها فوراً . وعلى عجل قمت بإعداد الموضوع الذي ألقيته على شكل محاضرتين مطولتين في يومي ٢٨ نيسان و ٥ مارس لعام ١٩٥٠ في نادي الطلبة الكائن في ساحة « بايزيد » وقد استمع جمع غفير من الطلبة إلى هاتين المحاضرتين بإهتمام شديد . ثم قمت بنشر المحاضرتين في جريدة « الصباح الجديد Yeni Sabah » اعتبارا من ١٧ مارس لنفس السنة على شكل ١٢ مقالة متسلسلة . وفي أثناء نشر هذه المقالات ـ وبعدها كذلك ـ استلمت رسائل كثيرة من مختلف أنحاء البلاد تبدي إعجابها أو نقدها لهذه المقالات ، وقد طلب الكثير من أصحاب هذه الرسائل جمع هذه المقالات ونشرها في كتيب . وصادف هذا هوى في نفسي ، إذ لم أشأ أن أدع هذا الجهد على شكل مقالات متفرقة على صفحات جريدة . ولكن هذا كان يستدعي بحث الموضوع بصورة أوسع وأعمق . وهكذا فإنني بدأت بتوسيع كثير من المواضيع وبتصحيح أخطائها كلما وجدت فسحة من الوقت . وهكذا ظهر هذا الكتاب الذي يجده القارىء بين يديه .

* *

هناك ناحية معينة أريد أن أنبه القارىء لها ، وهي أنني شخص مقصر ومذنب من ناحية العمل في موضوع الدين . ولكن هل من الضروري أن يمنعني تقصيري وذنوبي من حب الدين ومن الشعور بالشوق إلى السعادة التي لا تنفذ عند المتدين ؟ إن كوني اكتب مقالات حول مواضيع دينية أو دفاعي عن التدين لا يعني

بأني أطبق الأحكام الدينية على نفسي ، بل على العكس قد يكون سببه هو كوني متألماً من عدم استطاعتي ايفاء حق الدين وكذلك لأنني أغبط السعادة النفسية التي يمنحها التدين للانسان . وأنا أعتقد بأن الدين لا يشكل فقط منبعاً للفضيلة والتضحية عند الفرد فحسب ، ولكنه يشكل ـ بسبب ذلك ـ اقوى مصدر ودعامة لتأمين نظافة ونقاوة الحياة الاجتماعية . كما أنني أعتقد بأن حب الدين والدفاع عن الإسلام هو في نفس الوقت حب للإنسانية ودفاع عن الحقوق الإنسانية . لان الإسلام ما هو إلا « الانسانية » في ثوب دين ، والمسافة ليست بعيدة أبداً بين المسلم الصادق وبين محب الانسانية .

* *

الفصل الأول

بدعة الإنكار في العصر الحديث ، وأنواع هذا الإنكار :

قبل أن ندخل في موضوع موقف العلم من الدين نحب أن نرى ماذا يقول المنكرون ؟ وفي أي موضع يجانبهم الصواب فيخطئون ؟ ولنعلم من الآن أن أمثال هؤلاء الملحدين وجدوا في الشرق وفي الغرب في مختلف العصور والأدوار ، ولكن بدعة إنكار الله والهجوم على الدين بدأت في الغرب في متوسط القرن الثامن عشر . أما عندنا فلم تبدأ الا قبل خمسين أو ستين سنة ، إذ إن أمثال هؤلاء قبل هذا التاريخ كانوا قلة في الناس ، وكانوا يخفون أو يؤولون مقاصدهم .

ونحن هنا نحب أن نقف فقط على الإلحاد الذي نشأ في الغرب ، ذلك لأن الالحاد عندنا لم يكن نتيجة تفكير ذاتي مستقل وإنما كان تقليداً للغرب خاليا من أي أثر ومن أي جهد فكري حر . . وكانت الأقلام الملحدة التي اجتمعت حول مجلة « الاجتهاد » ـ في السنين المصادفة لإعلان الدستور ـ تردد فقط أفكار الفلاسفة الفرنسيين الملحدين في أواخر القرن الثامن عشر .

وعندما ندقق موقف الملحدين في الغرب نرى أنهم لم يكونوا في نفس القوة ولا في نفس الطريق ، فقد ادعى بعضهم بأنه يتكلم باسم « العلم » ورأى بعضهم في الهجوم على الدين واسطة لإشعال الثورات في العالم ، ومنهم من رأى أن الهجوم على الدين يتماشى مع روح العصر .

ونحن في هذا البحث الموجز لا نستطيع أن نشرح بالتفصيل تاريخ الإلحاد

بجميع أنواعه وأقسامه ولكننا سنتناول بالبحث أهم قسمين منه فقط وهما الانسكلو بيديون والماديون .

الانسكلو بيديون

ما هو الدين ؟

يجيب الفلاسفة العقليون(١) والانسكلو بيدون(٢) أمثال فولتير VOLTAIRE وديدرو Diderot على هذا السؤال بهذا الجواب .

« إن الدين خرافة أوجدها الرهبان ورجال الدين ، فقد نشأت في كل

---

(١) الفلسفة العقلية هي الفلسفة التي تعتقد بقدرة العقل المطلقة في الوصول إلى الحقيقة فهي ترى في العقل المصباح الذي يضيء الحقائق والمرآة التي ترينا هذه الحقائق فالاشياء التي تتلائم مع العقل حقائق ، وكل ما يخالف العقل فليس بحقيقة .

(٢) الانسكلوبيديون هم جماعة من الكتاب والمفكرين ـ في القرن الثامن عشر ـ الذين كانوا يحررون « دائرة المعارف : الانسكلوبيديا » وهذا قاموس كبير يبحث في الفن والفلسفة .. الخ .. وقد هاجم هؤلاء جميع المفاهيم التي كانت سائدة في عصرهم عن المجتمع والحكومة والدولة . وكان على رأس هؤلاء « ديدرو Diderot ١٧١٣ ـ ١٧٨٤ » و « دلامبير DAlembert ١٧١٧ ـ ١٧٨٣ » . ولكل منهما مؤلفات فلسفية ، وقد هاجما الدين بشدة تحت ستار الهجوم على الكنيسة . فمثلا « ديدرو » ينهي كتابه « تفسير الطبيعة Interpreta-tion de la Nature » بهذه السطور : (أيها الرب ! لا أدري هل أنت موجود أم لا ولكن سلوكي مع هذا سيكون كأنني ماثل امامك وكأنك قادر على ان تقرأ ما في نفسي .. لا اطلب منك في هذه الدنيا شيئا ، وإذا كان هناك شيء اسمه الآخرة فإنني سأطلب فيها منك الرحمة ، ولكن عماي في هذه الدنيا سيكون من أجل نفسي فقط . وإذا كنت وراء الخير فإنني لن أجر ضراً وإذا تركت الشر فإني افعل هذا دون أن أفكر فيك .. وهكذا فأنا قطعة من المادة الأزلية الضرورية او ربما كنت « مخلوقك » !)

عصر طبقة من الكهان والرهبان الخاملين الذين لا عمل لهم ، وهؤلاء هم الذين أوجدوا المراسيم الدينية وستروا أنفسهم بستار من الغموض والرهبة . إن هذه الطبقة التي نجحت في أن تأكل في المعابد دون تعب والتي عاشت طفيلية على المجتمع هي التي اخترعت فكرة الدين والخالق مستغلة في ذلك جهل المجتمع ، وجعلت من هذه الفكرة الدينية مورد عيشها ورزقها . . . ولكن تقدم العلم فتح أبصار الناس وحل لهم أسرار الطبيعة وطلاسمها فلم يعد هناك مكان لوهم اسمه « الله » ولم يعد هناك مكان لخرافة مظلمة اسمها « الدين »[3] .

---

(٣) في القرن الثامن عشر كان من بين خصوم الدين بل على رأسهم الكاتب الفيلسوف الفرنسي « فولتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨ » فهذا الكاتب فاق معاصريه في التهجم على الدين فقد وصف الدين بأنه خداع وتضليل ووصف رجال الدين بأنهم كذابون مخادعون وقد بدأ عداؤه للدين في سن مبكرة إذ كتب مقالة في مجلة أدبية سنة ١٧١٨ ضد رجال الدين قال فيها : (أن الناس يجهلون حقيقة هؤلاء الناس وإن جهلنا هو رأسمالهم الوحيد) فالدين عند فولتير مثل النقود الزائفة لا ينخدع بها غير البسطاء والجهلاء ، وقد تجرأ على الهجوم على محمد (ص) وصرف معظم حياته في التهجم على الدين حتى في أكثر كتبه جدية واصفا اياه بانه عبارة عن صدفة اليمة في حياة الأمم . في كتابه « Essai sur les moeurs » تساءل : من اول من اخترع الدين ؟ وأجاب هو نفسه على هذا السؤال بقوله : (انه ذلك المحتال الذي تقابل في يوم من الأيام مع أحمق) ويقول أيضا في هذا الكتاب : (بعد مرور عصور وعهود وبعد ان تكونت مجتمعات كثيرة ظهرت الأديان واخترعت لها مراسيم حمقاء) . المجلد الأول ص ١٤٠ .

ولنسجل من الآن ان علم الاجتماع والتاريخ ينفيان هذا القول ويكذبان المزاعم ويعتبرانها اقوالا مضحكة ، فان اي شخص يملك ثقافة متوسطة في الفلسفة والتاريخ لا يمكن ان يأخذ هذه الاقوال مأخذ الجد وانما يرى فيها تهجمات كاتب حقود ومن الذين ساروا على الطريق الذي فتحه فولتير هو المفكر الالماني « فورباخ Feverbach » (١٨٠٤ - ١٨٧٢) فهذا المفكر يرى ان الدين من اختراع الانسان وان الله لم يخلق الانسان بل الانسان هو الذي خلق الله . وان احكام الدين واوامره ليست الا افكار الانسان المثالية ، وبتقدم العلم سيستيقظ الانسان وسيصيخ سمعه الى العلم لا الى الدين .

إن هذا القول لا يستند على أي أساس علمي أو تاريخي ، وإنما استغل واستعمل كسلاح ذي حدين لتحطيم الحكم المطلق والكنيسة وقد امتد هذا الاعتقاد ـ مع الأسف ـ الى يومنا هذا ولقى رواجاً في محيط أنصاف المثقفين وأدعياء الفكر :

موضع خطأ الأنسكلوبيديين

لم يكن الدين شيئا مخترعا من قبل طبقة الكهان مطلقا وإنما على العكس تماما فإن الشعور الديني الموجود في فطرة الانسان هو الذي اوجد مثل هذه الطبقة . . . فالأبحاث والتدقيقات التي جرت في ميداني علم الاجتماع والتاريخ خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثبتت أن الدين وجد منذ وجود الانسان كشعور عميق وكسند معنوي ، وإن جميع الحضارات والمدنيات الأولية وآثارها كانت نتيجة ووليدة هذا الشعور ، فالسياسة والاخلاق بل حتى التكنيك والفنون الجميلة مدينة في نشوئها وفي تقدمها إلى هذا الشعور والتفكير الديني ، وإن نواة هذه المؤسسات وجدت وتكونت منذ البداية في ظل الدين وتقدمت معه جنبا إلى جنب واستمر هذا حتى إلى زمن قريب حيث انفصلت عن الدين وأصبحت كل منها مؤسسة مستقلة عن الأخرى[٤] .

---

٤) نستطيع أن نتعقب هذا الانفصال في تركية خطوة فخطوة فقد كانت القوانين والأعراف والاخلاق تنبع كلها من « الشريعة » وتلتقي جميعها في تربية دينية قبل بدء « التنظيمات »* سنة ١٨٣٩ حيث بدأت في هذا الدور حركة الاقتباس من قوانين أوروبا التجارية والجزائية وفي أصول إدارة الدولة وبدأت هذه الرابطة والوحدة بين القوانين وبين الدين تنفصم تدريجيا وببطء . ولكن الدين والقوانين احتفظا بقسم كبير من حيث وحدتها ومن حيث ينبوعها المشترك حتى سنة ١٩٢٦م فقد كان القسم الأعظم من قوانيننا المدنية مستندا على

علم التاريخ اليوم يثبت أن الدين كان مرشداً للبشرية منذ الأدوار الأولى وخلال عصور طويلة وكان استاذاً للفلسفة والفن[٥] .

« إن تقدم العلم مدين في أشياء كثيرة إلى الدين . فقد كان الدين متغلغلا في جميع الفعاليات الفكرية في القرون الأولى ، وكان كل شيء في قالب ديني ، حتى إننا نستطيع أن نقول إن جميع الأشياء كان منبعها الدين » .[٦]

العوامل التي أبعدت الانسكلو بيديين عن الصواب :

كان فلاسفة القرن الثامن عشر يبالغون في موضوع الدور الذي تلعبه طبقة رجال الدين ويذهبون في هذه المبالغة إلى حد بعيد مما كان يؤدي بهم إلى أن يقعوا في أخطاء فاحشة في نظر علم التاريخ[٧] . فالعامل الأول الذي أبعدهم عن

الشريعة الاسلامية إذ أخذت القوانين السويسرية في هذه السنة فانفصلت القوانين التركية تماما عن الدين .

* عهد « التنظيمات » يبدأ في سنة ١٨٣٩ م حين جاء السلطان عبد المجيد إلى الحكم وأصدر مرسوما يحتوي على بعض القوانين المقتبسة من الغرب تحت إيعاز وزير الخارجية مصطفى رشيد باشا بحجة أن الوسيلة الوحيدة لنيل رضى الدول الغربية وتجنيب الدولة العثمانية ـ الضعيفة آنذاك ـ عداوة هذه الدول هي في إظهار النية الحسنة عند الدولة العثمانية واثباتها عن طريق اقتباس القوانين الغربية ! « المترجم »

(٥) انظر Louis Weber, Le rythme du progres (Etude Socialogique) paris, lib. F.Alcan, P.152— Fustel de coularige.

(٦) انظر La Antique, lib. Hachette p.39 et suite R.Worms, conclusions des sciences sociales paris 1920 lib, Giard, P.168

(٧) أنظر Salomon Reinach. or pheus (Histoire Generale des Religions) paris, lib. d'Education Nationale 1930 P. 13—14

الصواب هو أنهم استعملوا الهجوم على الدين كوسيلة وكسلاح في كفاحهم ضد الحكم المطلق الذي كان سائدا في ذلك العصر ، فإن الانسكلو بيديين لم يجسروا أن يشهروا أقلامهم في وجه الحكم المطلق مباشرة فأخذوا يهاجمون الكنيسة ورجال الدين الذين كانوا سنداً وعونا للطبقة الحاكمة .

وقد ساعد على هذا وجود كثير من رجال الدين المنافقين المنكبين على مصالحهم الخاصة وعلى شهواتهم[٨] ، ثم إن الذكريات السيئة الأليمة التي خلفها بابوات وكاردينالات عائلة بورجيا[٩] التي حكمت إيطاليا في القرن السادس عشر والتي حولت المعبد المسيحي الى بؤرة فساد . . هذه الذكريات بآثارها التي تدعو الى النفور والى الاشمئزاز كانت لا تزال ماثلة في الأذهان . لذلك فلم يكن تهجم فولتير وأصدقاؤه على الدين عن يقين « علمي » وإنما كان رد فعل للجرائم التي ارتكبت باسم الدين وتحت ستاره .

فكما أن الغضب على مدعي العلم وتجاره لا يكون مبرراً للتهجم على العلم ، فإن الغضب على مدعي التدين الفاسدين لا يكون مبرراً للتهجم على الدين . أن مثل هذا التصرف يكون مناقضاً للتفكير المنصف السليم .

إن المنافقين والشريرين يوجدون على كل مستوى ، ولا تكاد تخلو منهم طبقة أو زمرة ، ومن الطبيعي أن يوجد أمثال هؤلاء بين رجال الدين كذلك ، بل وجدوا في كل دور وفي كل عهد ، فشوهد مفتون وعلماء مسلمون كانوا يلبسون

---

(٨) نفس المصدر السابق .

(٩) هي عائلة كبيرة حكمت ايطاليا في القرن السادس عشر وكان من بين أشهر افراد هذه العائلة البابت اسكندر السادس ولوكرس بورجيا .

جبة المشيخة نهارا ثم يقضون الليل في النوادي الماسونية وشوهد منهم من باع ضميره وإيمانه من أجل جاه أو منصب .

ولكن التاريخ سجل من جانب آخر عدداً لا حصر له من رجال الدين الأبطال الذين لم يحنوا رؤوسهم أمام أعتى الطغاة ولم يترددوا في التضحية بأنفسهم وبأرواحهم في سبيل إيمانهم وعقيدتهم(١٠) .

وهناك سبب آخر جعل مفكري القرن الثامن عشر يقعون في أخطاء جسيمة بصدد موضوع الدين ، وهو أن العلم في ذلك العصر كان لايزال في مرحلة الطفولة لم يشب عن الطوق ، أما علم التاريخ فكان كمزرعة لم تسو أرضها بعد(١١) .

إن تناول مواضيع معقدة وعويصة كموضوع الدين اعتماداً على ذلك القدر الضئيل من العلم ومن علم التاريخ الذي لا يسمن ولا يغني من جوع بعيد عن الاحتياط بل هو تهور لا يليق بالعلماء .

إن التقدم الذي أحرزه العلم وخاصة في تاريخ الأديان في القرنين التاسع عشر والعشرين كشف أن الدين حاجة فردية وحاجة جماعية أيضا . وأن فكرة « الخالق » وعقيدته تستند على أحساس فطري عميق وإلى شعور صاف شفاف في

---

(١٠) يعتبر الشيخ علي زنبلي افندي* الذي عاش في عهد السلطان بايزيد الثاني وياووز سليم وسليمان القانوني نموذجا واحدا فقط من هذا الطراز الرفيع من رجال الدين .

* انظر إلى فصل « مفتي السلطان » ص ٢٤١ من كتاب « رجال من التاريخ » للأستاذ علي الطنطاوي .

(١١) انظر

Prof. Maurice Halbwarchs, Les origines dusentiment Religieux. paris. lib. Stock (La Culture Moderne) P.7

نفس الانسان ، وكشف كذلك عن الخطأ الفاضح الذي وقع فيه الانسكلوبيديون .

ان الدين نشأ مع الانسان ومع المجتمع وقد عاش ووجد منذ عصور طويلة بين مختلف الأقوام وامتد إلى يومنا هذا بعد أن مر بكثير من التطورات وهو يعد حتى في هذه الأيام من أكبر القوى التي تؤثر في سير العالم وفي اتجاهه . ان مثل هذه المؤسسة لا يمكن أن تكون قائمة على الكذب والخديعة ، ولا يمكن أن تكون أجيال الانسانية كلها منخدعة في هذا الموضوع طيلة هذه العصور والقرون الطويلة إن مثل هذا الزعم ليس إلا جهلاً بأهمية « الاعتقاد الجماعي » المشترك ، وبمفهوم ومعنى المؤسسات الاجتماعية كذلك . إن جذور العقيدة الدينية كامنة في فطرة الانسان ، والأديان تلبي هذه الحاجة الملحة بالتقائها المشترك حول بعض الحقائق كفكرة الله واليوم الآخر . . . هذه الحقائق التي مهدت ويسرت للأديان سبل البقاء وأعطتها القوة الكافية والمناعة الكافية لمقاومة العواصف التي حفل بها التاريخ[12] .

مهمة الدين لم تنته ولن تنتهي :-

إن مفكري القرن الثامن عشر الذين ظنوا أن التقدم الذي يحرزه العلم سيقضي لا محالة على الدين كانوا كالأطفال الذين حسبوا خيالهم وظلهم حقيقة .

إن الملحد المسكين الذي يعتقد أن مفتاح العلم قادر على فك كل طلسم ومعرفة كل مجهول لا يدرك أن كل لغز يحله العلم ينتج عنه مئات الألغاز ، ولا

(١٢) انظر إلى نفس المصدر السابق ص ٨ .

يدري أن العلم يسبح في محيط الألغاز والطلاسم وأن ما نعلمه بالنسبة إلى ما نجهله هو كالقطرة في المحيط الواسع .

كلا ! . . . إن مهمة الدين لم تنته ولم تفلس ، وما بلغ العلم اليوم أكثر من انه أدرك عجزه وقصر باعه .

أيها الملحد الذي لا يرى ببصره شيئا ! فكر . . . إن هذه الكرة التي تعيش فوقها هي كالنقطة في هذه الكائنات اللانهائية . . . أما أنت فإنك فوق هذه النقطة ذرة من ذراتها . . . وجودك فان ، وعمرك محدود وعقلك عاجز . . . أنت تنسى عدمك هذا فتحاول ان تدرك هذه الكائنات اللانهائية كلها وأن تحيط بها علماً . . . أنت لا ترى أن هذا العقل الذي تثق به كل هذه الثقة وتؤمن به كل هذا الإيمان لم يبلغ بك أن يعلمك الانصاف أو السكوت على الأقل أمام ألغاز الكائنات ولم يقلل من تبجحك وغرورك !

ولا يوجد اليوم عالم ولا فيلسوف يمشي على آثار فولتير أو أمثاله ، لأن مبدأ الحركة في العلم هو « الشك » أما في الفلسفة فهو « التأمل » و « الحيرة » . أما الانكار دون تورع فهو جهل محض ، والذين يتجرأون على الإنكارهم الجهلاء فقط .

الماديون بماذا يفكرون ؟ وماذا يقولون ؟

بعد الانسكلوبيديين وفي بداية القرن الماضي تسترت الخصومة مع الدين بستار العلم ونزلت إلى الميدان من جديد .

فقد كان فولتير وأصدقاؤه ـ كما قلنا آنفا ـ يحاربون الدين ورجاله كوسيلة في

نضالهم السياسي ضد الحكم المطلق ، أما التيار الحديث للانكار والالحاد والذي سمى نفسه بـ « المادية » Materialisme فقد أراد أن ينسف الدين من أساسه وأن يقوضه من أركانه واستظل تحت ظلال العلم الـذي خطا خـطوات واسعة إلى الأمام .

إن المادية الملحدة كانت منذ القدم ألد خصوم الدين وأضراهـم له عداوة لذلك فلابد لنا من بعض التفصيل حول هذه المادية الملحدة.

ماذا قال الماديون القدماء ؟

المادية هي الفلسفة التي ترى أن المادة هي أصل ومبدأ كل شيء وخالقة كل شيء ، أي أنها تضع المادة مكان الخالق .

هذه الحركة الفكرية ليست بالشيء المستحدث أو بالشيء الجديد في عالم الفكر ، فإن لها تاريخا ضاربا في القدم . فمؤسس هـذه الحركـة وبطلهـا هو الفيلسوف اليوناني « ديمقريط Democrite » الذي عاش سنة ٥٢٠ ق.م. وفي رواية اخرى سنة ٤٦٠ ق.م. بل إن تاريخ المادية أقدم من هذا الفيلسوف[١٣] . ولكن « ديمقريط » يعتبر أول من نظم هذه العقيدة وأعطاها الوجهة الفلسفية .

بعد « ديمقريط » بحوالي مئة سنة جاء فيلسوف يوناني آخر هـو « أبيقور Epicure » ، فخطا بهذه الفلسفة خطوات إلى الأمام وأرسى القاعدة للمدرسة

---

(١٣) في رواية إن أول معلم للمادية هو الفيلسـوف « لوسيب Leucippe » الـذي عاش في تراقيا ، ولكن لم يمكن الحصول على أية معلومات عن حياته ، وليس بأيدينا اليوم من مؤلفاته أي شيء .

الفلسفية المعروفة بـ « المدرسة الأبيقورية Epicurisme » وبعد اليونانيين دافع الفيلسوف والشاعر الروماني « لوكرس Lucrece » الذي عاش سنة ٩٥ ـ ٥١ ق.م. عن المادية مما ساعد على بقائها وعدم اضمحلالها

هؤلاء الماديون القدماء كانوا يعتقدون أنه تحت قبة هذه السماء « لا يخلق أي شيء من العدم ولا ينتهي أي شيء موجود إلى العدم » وإنما يتغير اللون والشكل والموضع ، فالأمطار تسقط فتنمو الأعشاب والأشجار وتكبر تحت ضوء وحرارة الشمس ثم تجف وتتساقط وتتحول إلى تراب مرة أخرى .

وهكذا كل شيء يكون موجودا وحيا لفترة من الوقت ثم يجف ويذوي راجعا الى عناصره الاولية . . . هكذا في دورة دائمة مستمرة ، واذا كان هنالك ما لا يتغير في هذه الدورة الأزلية الدائمة ويبقى خالدا فهو « المادة » ، وما الأشياء والأجسام إلا صور من الصور المتعددة اللانهائية للمادة . لذلك فإن الكائنات هي عبارة عن المادة ، وأصل كل شيء وجوهره إنما هو المادة .

والمادة تتألف من « ذرات » غير قابلة للتجزئة(١٤) . وهكذا فإن كل موجود انما هو عبارة عن « تراكيب » من الذرات . السماء عبارة عن فضاء من الذرات ، سطح الأرض ، القمر ، الشمس ، وجميع السيارات الأخرى . . الخ عبارة عن ذرات متراكبة والضوء والحرارة مركبات مادية أيضا ، وكذلك الروح فإنها تتألف من ذرات ولكنها ذرات شفافة وسيالة ، وليس هناك وجود لروح خارج عالم المادة .

---

(١٤) هذه الذرة التي كان الماديون القدماء يعتبرونها غير قابلة للتجزئة قد جزئت وحطمت اليوم واستخلصت منها قوى هائلة .

والذرات التي تؤلف جسماً ما ستنفصل بعضها عن بعض وتنتشر في الطبيعة الأزلية ، ولكنها لا تنعدم ، وإنما تتحد بذرات أخرى على نظام آخر مكونة جسماً أو موجوداً آخر . . . وهذا هو سر الخليقة .

وموت الأحياء إنما هو انفصال الذرات التي تتألف منها الروح بعضها عن بعض وخروجها آخر الأمر ـ مع النفس الأخير ـ من الجسم . ولكن هذه الذرات ستتحد مع بعضها على نسق آخر وتعود للحياة في شكل حي آخر . . . وهذه هي الولادة والموت .

وبما أن « الآلهة » لم تخلق هذه الدنيا وهذه الحياة ، لذلك فليس لها أي دور في سير هذا العالم ، وليس لها أي تأثير كذلك ، أما العبادة والمعابد والآخرة . . . فكل هذه ألفاظ جوفاء .

والاعتقاد بالآخرة ـ أي تصور وجود عالم آخر يعيش فيه الانسان بعد موته في هذه الدنيا إنما هو بمثابة إراقة السم في نبع هذه الحياة ، وعلى الشخص العاقل اللبيب أن يعلم أن الحياة والسعادة إنما توجدان فقط في هذه الدنيا ، وهذه الدنيا تتألف وتتكون من المادة التي هي أصل الكائنات والحياة .

فلسفة افلاطون اللامادية أمام الفلسفة المادية

هذه المادية القديمة وجدت تجاهها خصماً عملاقاً قوياً من فلسفة أفلاطون التي تقوت بفلسفة أرسطو ، لذلك فإن حركة المادية القديمة لم تستطع ان تتقدم وإنما انزوت وتقلصت .

وأفلاطون ـ هذا العبقري في تاريخ الفكر الانساني ـ هاجم المادية بشدة

ودافع عن اللامادية أو الروحية Spiritualisme وعن المثالية idealisme وعن الوحدانية ـ وحدانية الخالق Monotheisme ولو بشكل مبهم ، وارتفع إلى فكرة واجب الوجود « Etre necessaire » ، وكان يرى إن الكون ـ وخصوصاً الانسان والحياة ـ لا يتألف من المادة وحدها ولا يمكن إرجاعه إلى المادة فقط ، فالمادة هي نوع من الوجود Etre أحط وأصغر حد للوجود .

حتى إن ارسطو ، هذه الشخصية الممتازة في تاريخ العلم وواضع أساس الاستقراء induction في المعرفة ، ظل مجهولا في أوروبا طيلة عصور عديدة ، والأثر الوحيد الذي عرفه الاوربيون من آثار ومؤلفات هذا الفيلسوف الكبير هو كتاب الـ Organon الذي اهدي الى شارلمان من قبل البيزنطيين ، ولعدم وجود من يستطيع ان يقرأ ويفهم هذا الكتاب فقد ظل مهملا في رفوف المكتبات . وكان اهم سبب في هذا الاهمال يعود إلى التعصب الأعمى السائد وقتئذٍ في أوروبا المسيحية وإلى العداوة التي شهرتها الكنيسة ضد فلسفة أرسطو ، فقد اعتبرتها طريقا شيطانيا يؤدي إلى الكفر ، ولهذا السبب رأينا الكنيسة تحكم بشدة على مؤلفات ارسطو في تواريخ مختلفة وخاصة في سنة ١٢٠٩ م و ١٢٩٥ م وتحرّم على المسيحيين قراءتها ، والعامل الذي أدى إلى هذه الشدة هو أن الكنيسة لم تكن على علم بفلاسفة اليونان القدماء ومؤلفاتهم وإنما سمعت عن بعد إشاعات وروايات عن هذه الكتب(١٥) .

(١٥) كان الفلاسفة المسلمون هم الذين عرفوا أوروبا بفلسفة اليونان القديمة ، لذلك فانهم يعتبرون أول من ساعد وهيأ عصر النهضة في أوروبا ، فأوروبا عرفت أرسطو عن طريق ابن رشد وابن سينا ، إن الحضارة الاسلامية الرائعة التي استمرت من القرن الثامن إلى نهاية القرن الرابع عشر مجهولة وغير معروفة ـ مع الأسف ـ من قبل الكثيرين منا ، وقد انتقلت آثار هذه الحضارة اعتبارا من القرن العاشر إلى فرنسا وعن طريق صقلية إلى إيطاليا

ولكن الأمور بدأت تتغير بعد أواخر القرن الخامس عشر ويبدأ العلم والفلسفة في أوروبا يتخذان طريقا آخر واستقامة اخرى فقد ترك الـ «Empiricism» [١٦] و الـ «Dogmatism» [١٧] مكانهما للذهنية العلمية المستندة على التجربة والمشاهدة والبحث ، مما ساعد على تقدم العلوم الطبيعية وعلى تتابع الاستكشافات والاختراعات .[١٨]

كذلك ، ولعبت أهم دور في تهيئة عصر النهضة وعصر التجديد ففي ميدان الطب وفي الرياضيات وفي الكيمياء ، وباختصار في كل فروع العلم كان الفلاسفة المسلمون هم أساتذة الغرب ، وقد تعرفت أوروبا بالفلسفة اليونانية القديمة بواسطة الفلاسفة المسلمين أمثال « الكندي » و « الفارابي » و « فخر الدين الرازي » و« البيروني » و « ابن رشد » . فقد ترجمت مئات من كتب هؤلاء الفلاسفة إلى اللغة اللاتينية ومنها إلى اللغات الأوروبية الأخرى . ودرست في جامعات أوروبا زمنا طويلا ، فمثلا « كتاب الشفاء » لابن سينا درس في كلية الطب في فرنسا حتى مطلع القرن التاسع عشر . وأنا أوصي القراء الذين يرغبون في الاستزادة من هذه المعلومات في هذا الموضوع بقراءة : , Visagges de l'Islam par Haydar Bammate, payot, Lausanne, 1958

(١٦) التجريبية Empiricism هي الفلسفة المستندة في أساسها على التجربة وعلى المشاهدة المحرومة من الدقة العلمية .

(١٧) Dogmatism أو « مذهب اليقين » هو فرض قبول فكرة دون الاتيان ببرهان يثبت صحتها ، أو هو الاستناد على « النص » في مواضيع المعرفة ، أو على أوامر البعض .

(١٨) لا شك ان الفضل في الكشوف العلمية المتتابعة ، ووصول العلم الى هذا المستوى الراقي يرجع بدرجة كبيرة لجهود علماء ورجال عصر النهضة ، وان الانسانية لتدين لهم بذلك ، ولكن رجال عصر النهضة يتحملون الى جانب هذا قسطاً كبيراً من مسؤولية الازمة الروحية والمعنوية التي نعانيها في حياتنا الحاضرة ، فالوجهة الخاطئة التي خطت في عصر النهضة ساقت الانسانية الى عبادة المادة بل الى الوحشية ، والحقيقة ان عصر النهضة عني بـ « الكمية quantite » واهمل « الكيفية qualite » فنبذ كلمة سقراط الخالدة « اعرف نفسك » ، ونسي الانسان وحصر همه في معرفة الاشياء والكائنات . فكانت النتيجة ان العلوم النفسية التي تتعلق بـ « الانسان » بقيت قزماً ضئيلاً امام العلوم الطبيعية التي سبقتها بمراحل كثيرة . فكان ان تأسست حياة غير متوازنة . . حضارة مادية صرفة .

ثم إن هذه الحركة العلمية السريعة بدأت تأخذ شكلا معيناً ومنهجاً خاصاً في القرن الثامن عشر ، خالقة طوفاناً من النقد والتجريح هز المجتمعات الغربية من قواعدها ، فقد بدأ علماء الاقتصاد والسياسة بنقد النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم آنذاك والمستند على امتياز الطبقات وعلى نظام رق الشعوب .

وبينما كان الانسكلوبيديون يهاجمون هذه الأوضاع تحت ستار الهجوم على الكنيسة ، كان هناك مفكرون آخرون يهاجمون الدين والمعتقدات الدينية باسم العلم القائم على البحث والتجربة ، وفي نهاية القرن الثامن عشر أصبح إنكار الدين وإنكار الخالق بدعة شائعة وأصبح التدين عنوان الرجعية والتأخر .

كان لابلاس Pierre Laplace ١٧٤٩ ـ ١٨٢٧ » ـ الذي اشتهر في مجال البحوث العلمية شهرته في الإلحاد ـ على رأس الذين وضعوا هذه البدعة الجديدة . فإن هذا العالم الذي وضع قواعد علم الفلك الحديث عندما نشر سنة ١٧٩٦ كتاب « تفسير نظام الكون » أنكر الخالق بصراحة تامة . وهذا الشخص الذي رقي في عهد نابليون الى رتبة وزير الداخلية وعضوية مجلس الأعيان عندما سأله نابليون مرة : « حسناً ولكن أين وضع الله في نظام الكون عندك » أجابه قائلاً : « يا صاحب الفخامة ! لست في حاجة إلى فرضية الخالق التي لم تثبت حتى الآن » .

إذن فقد بعثت مادية « ديمقريط » القديمة وبدأت تعيش من جديد متخذة طابعين اثنين في القرن الماضي وهما المادية التاريخية والمادية العلمية .

المادية العلمية :

كان « لامارك » العالم الفرنسي أول من فتح طريق المادية العلمية أو

المدرسة العلمية Scientisme فقد أنكر فكرة « الخالق » التي تشكل قاعدة الأديان ، وزعم أن الحياة متطورة من المادة وأن الانسان متطور من الحيوان ، وفي كتابه « فلسفة الحيوانات » الذي نشره عام ١٨٠٩ حاول باسهاب أن يثبت فكرته وأن يبرهن على صحتها .

ومن بين أشهر الذين مشوا في الطريق الذي فتحه لامارك هو العالم الانكليزي داروين والطبيب والفيلسوف الألماني «بهنر Buhner » وقد نشر بهنر في سنة ١٨٥٥ كتابه « القوة والمادة » ونشر داروين سنة ١٨٥٩ كتابه « أصل الأنواع » .

ويعتبر « أرنست هيجل » من أشهر الماديين المعاصرين وأكثرهم إيغالاً في الإنكار والإلحاد ، ففي كتابه « الدين والارتقاء » الذي نشره عام ١٩٠٦ أنكر فكرة « الخلق » وفكرة « الخالق » ، وفسر الحياة بأنها نتيجة للتطور المستمر للمادة خلال الملايين من السنين حيث تشكلت العضويات من المواد اللاعضوية[١٩]

---

(١٩) هذه النظرية رسخت ـ مع الاسف ـ في اذهان الكثيرين من شباب اليوم واصبحت من قبيل البديهيات . . لا ادري من المسؤول عن هذا الوضع ولكن هذا حقيقة واقعة .

ولاعطاء القراء فكرة واضحة عن هذا الأمر ادرج هنا التقرير الذي قدمته إلى هيئة محكمة استانبول ـ قسم النشر :

« رئيس محكمة استانبول ـ قسم النشر ـ المحترم :

في يوم ١٩٥٣/٣/٢٤ دعيت كخبير الى محكمتكم للادلاء برأيي في وجود او عدم وجود تحقير للدين في المقالة المعنونة بـ « على ابواب افتتاح الجامعة » التي نشرت في جريدة (. . .) بتاريخ ١٩٥٢/١١/١ من قبل (. . .) .

وقد دققت ملف القضية الحاوي على ادعاء المدعي وعلى دفاع المتهم كما انني قرأت المقالة الآنفة الذكر المنشورة في تلك الجريدة ، وانا هنا ادرج رأيي الشخصي :

لا شك ان المتهم عندما يكتب في مقالته : (. . . اننا بينما ندرس نظرية داروين في

النشوء والارتقاء من جانب ، نلقن الصغار في المدارس الابتدائية في دروس الدين معلومات غير علمية من جانب آخر ، فمثلا نلقنهم مثل هذا الدعاء : « يارب ! انت خالقي وخالق أبي وامي وخالق الاحياء والجمادات وانت رازقنا » .) . يستعمل كلمات خشنة وغير لائقة ، ولكني لم أر في مقالته تحقيراً للاديان وخصوصاً للدين الاسلامي .

انني بهذه المناسبة اريد ان اهنىء مقام الادعاء على ما ابداه من اهتمام دقيق بهذه المسائل التي تمس عن قرب سلامتنا الاجتماعية والوطنية ، ولكني اعتقد ان المتهم لم يقصد تحقير الدين وانما جهله وضحالة معلوماته في ميدان العلم والدين هو الذي املى عليه تلك المقالة .

ان وصف الدين بانه « غير علمي » ليس اهانة للدين وانما هو جهل بموقف الدين والعلم كل منهما تجاه الآخر ، والحقيقة ان القول بان الدين « غير علمي هو قول خاطىء ، لأن العلم لا ينفي الدين وكل منهما لا ينقض الآخر حتى يجوز القول بان الدين غير علمي فهما غير متناقضين بل يتمم احدهما الآخر ، ومن الممكن ان يسير العلم والدين جنباً الى جنب وهذا من مصلحة ومن خير الانسانية .

ان صاحب المقالة الذي يرى ان تلقين الصغار فكرة الخالق شيء غير علمي ويرى الغاء دروس الدين من المدارس ، انما أظهر جهله لا بمفهوم الدين وحده بل بمفهوم العلم كذلك وبالدور الذي يلعبه كل منهما في تلبية الحاجيات البشرية ، لذلك فاني ارى ان تدرسوا وتعلموا هذا المتهم بدل ان تعاقبوه لانه ليس مجرماً وانما هو ضحل المعرفة قليل المعلومات ، وهو معذور في هذا . .

لو ان صاحب المقالة علم ان العلم والدين لا يتنافيان وانما يتمم احدهما الآخر ، لأن العلم هو نور العقل والدين هو نور القلب ولان الانسان ليس عبارة عن عقل فقط ولا عن قلب فقط ، ولكنه مخلوق ذو عقل وذو قلب . ان العلم بدون الدين قد يلبي حاجة العقل ولكنه - بالتأكيد - يدع القلب في ظلام ، وكذلك فان الدين بدون العلم قد ينير القلب والوجدان ولكنه يدع العقل في ظلام ، لذا فان من خير البشرية ان تمتلك العلم والدين معاً ، لا ان تمتلك العلم وحده كما في عصرنا الحاضر ولا ان تمتلك الدين وحده كما كانت في القرون الوسطى .

ولو علم صاحب المقالة ان العلم اليوم في القرن العشرين قد سبق العلم المادي لعصر « داروين » و «بهنر» بقرن كامل وسبق موضة الإنكار والالحاد وتأليه المادة لعصر

« لابلاس » و « لامارك » بقرن ونصف قرن ، فالعلم اليوم قد سبق هؤلاء بكثير وهو الآن لا يرى في فرضية داروين ولامارك سوى فرضيات وتخمينات غير دقيقة مكانها الآن في رفوف الفرضيات فقط .
واليوم لا يمكن ان يرى اي عالم او فيلسوف بحق ينكر وجود الله باسم العلم لأنه لا يستطيع ، لأن العلم اليوم يعرف حده ويعرف ساحته ، وقد اضطر الى ان ينسحب الى تواضع معقول لأنه قد تقدم كثيراً بالنسبة الى الماضي ، وكلما تقدم العلم اصبح العالم يعرف بصورة أجلى واوضح ما يجهله .
لا شك ان العقل هو الادراك في العلم ، ولكن العقل كالانسان ـ بل كجميع الكائنات ايضاً ـ محدود وذو نهاية ، اي بكلمة اخرى انه عاجز ، وان اصدار حكم الانكار بهذه الواسطة او الآلة العاجزة القاصرة حول اكثر الامور تعقيداً كفكرة الله وفكرة الأزل والابد واللا محدود يكون حكماً صبيانياً وغير علمي ، لذا فان اكثر العلماء تمرداً والحاداً اليوم يكتفون بقول : « لا ادري » حول وجود الله ومنشأ الحياة والكائنات .
لو علم صاحب المقالة ان داروين ولامارك لم يضعا « حقيقة » علمية حول نشوء الحياة والكائنات وانما وضعا « نظرية » اي فرضية علمية . فنظرية التكامل اي نشوء الحياة والكائنات من تحول المادة وتطورها ليست سوى تخمين وافتراض ، وان قيمة هذه النظرية في نظر العلم ليست اقوى باي حال من فكرة العقيدة الدينية حول فكرة « الخالق » بل على العكس فانها اضعف منها في كثير من الوجوه ، وان هذه الفرضية لا يمكن الدفاع عنها علمياً لان العلم يستطيع فقط ان يحكم على الاشياء التي تكون قابلة للتجربة والمشاهدة والمقايسة ، لا على الامور التي تقع خارج نطاق امكان بحثه (مثلاً امور ما وراء الطبيعة) .
ان تدريس مثل هذه النظريات في المدارس على اعتبار انها حقائق لا يرقى اليها شك ، والوقوف من هذه النظريات هذا الموقف انما هو الشيء « غير العلمي » وهو التعصب الخاص بذهنية القرون الوسطى ، وهو عدم حياد بارز ، وتحيز واضح ، وان المدارس الحديثة عندما تتخلص من امثال هذا التعصب تكون اقرب الى ايفاء وظيفتها في خدمة الانسانية .
وخلاصة الكلام لو علم صاحب المقالة كل هذا لما اندفع بمعلوماته القليلة في اصدار

الفلسفة الوضعية Positivism[٢٠]

نستطيع أن نضيف كثيراً من الأسماء والمدارس الفلسفية إلى ما عددناه سابقاً ، وفي هذه الاثناء يمكن التكلم عن « البوزتفزم » أي « الفلسفة الوضعية » وعن أنصارها .

وهؤلاء لا يختلفون عن الماديين في كثير ، فكلاهما يلتقيان في الالحاد وفي رفض الأشياء التي لا تدخل ساحة التجربة أو الحس أو المشاهدة ، ولكن الفيلسوف الفرنسي « أوغست كومت Auguste Comte » (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) مؤسس هذه الفلسفة وضع فكرة « الانسانية » مكان فكرة « الخالق » كما أنه حاول أن يضع ديناً مرتبطاً بـ « معبد الانسانية » أسماه « دين الانسانية » وضع له طقوساً وعبادات خاصة مدعياً بهذه نوعاً من النبوة فأصبح سخرية أمام العالمين .

ولا فائدة من إطالة الكلام في أمثال هذه المذاهب والأفكار التي تتعدد وتختلف في أسلوب العرض ولكنها تتحد وتجتمع في فكرة واحدة وهي الالحاد .

إذن لنلقي نظرة على الاتجاه الآخر الذي سلكته المادية المعاصرة أي على المادية التاريخية .

القرارات والاحكام في اكثر المسائل تعقيداً . . والحقيقة اني اقتنعت من اسلوبه بانه معذور وانه لم يكن يقصد تحقير الدين

(٢٠) هي الفلسفة التي تقول باننا بالتجربة والمشاهدة فقط نستطيع ان نتوصل الى الحقيقة الثابتة . وكل معرفة لم نستحصلها من التجربة والمشاهدة فهي خاطئة وغير ذات قيمة ويعتبر اوغست كومت مؤسس هذه المدرسة الفلسفية .

المادية التاريخية :

حتى أواخر القرن الثامن عشر سادت الفلسفة المادية تحت أسماء مختلفة وعناوين مختلفة كاللاماركية والدارونية والبوزتفزم والنشوئية . ولكن في أواسط القرن الماضي نشأ مذهب آخر وتيار آخر تحت اسم المادية التاريخية Materialisme historigue .

ومهما بلغت شهرة الماديين العلميين فإنهم بقوا في الميدان النظري وحده ، ولكن أصحاب المذهب الجديد أخرجوا الفلسفة المادية من إطار الميدان النظري واستعملوها كسلاح فتاك ضد الدين والعقائد الدينية والروحية فكانوا في هذا أقرب إلى الانسكلوبيديين منهم إلى الماديين العلميين .

وهذه العبارة ، أي عبارة « المادية التاريخية » أطلقها فردرك انجلز Frederik Engels على مذهب « Doctrine » صاحبه كارل ماركس .

والحقيقة أن كارل ماركس كان مادياً متعصباً حاول أن يطبق المادية على فلسفة التاريخ والعلوم الاجتماعية وعلى الاقتصاد السياسي وأشار إلى أنها التفسير الوحيد لجوانب الحياة ومشاكل المجتمعات وأنها المفتاح الوحيد لحل جميع هذه المشاكل . ولم يكتف فقط بالهجوم على الأديان بل أنه شرع هذه النظرية كسلاح جهنمي ضد الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية القائمة آنذاك .

الماديون التاريخيون ماذا يقولون ؟ وأين يخطئون ؟ :

إن الشيوعية المعاصرة التي تحاول أن تشعل نيران الثورات في العالم إنما تستند على هذه النظرية التي تدعي ما يلي :

إن العلة الأساسية في الحركات السياسية والاجتماعية والدينية ، وكذلك في تكاملها وتطورها هي العلة المادية أي الإقتصادية . وأن الضرورات المادية ـ والتي لا يكون أشباعها إلا بالطرق والوسائل المادية ـ هي التي تحدد وتعين شكل المجتمعات وطبيعة علاقات أفراد هذه المجتمعات بعضهم ببعض . وأن الظروف المادية والامكانيات الاقتصادية ووسائل الانتاج تشكل قواعد البناء للمجتمع وللانسان وإن الأخلاق والسياسة والقوانين والعلم والفنون الجميلة بل وحتى الدين إنما تقوم على هذه القاعدة وعلى هذا الأساس الاقتصادي ، وما الدين إلا باب للسعادة المتوهمة من قبل الجماهير الغافلة .

ولكن الجماهير عندما تدرك معنى السعادة الحقيقية وتدرك الطرق المؤدية أليها ، عند ذلك لن تبقى حاجة إلى الدين وإلى الله . والماركسية ـ كنظرية لابلاس في تفسير نظام الكون ـ لا مكان عندها لفكرة الخالق بل إنها دين في نفوس أتباعها وهي تنظر إلى المستقبل بعيون الأمل .

وهنا لا بد لنا من أن نقف وقفة قصيرة لنقول إن الماديين التاريخيين يخطئون عندما يفسرون التاريخ الانساني ـ وكذلك الدين وسائر المعتقدات ـ تفسيراً مادياً صرفاً ويرونه تابعاً للمؤثرات الاقتصادية والمادية لا غير .

. إن النظر إلى التاريخ وإلى المجتمع من هذه الزاوية المادية وحدها إنما هو معرفة جانب واحد أو استكشاف سر واحد من آلاف الأسرار التي تحيط بهذا الكائن الغامض المسمى بـ « الانسان » وهو إهمال لجوانب متعددة كثيرة منه . إن الانسان ليس آلة Robot متكونة من عضلات وعظام وأعصاب ، وليس مخلوقاً ينحصر همه في الأكل والشرب والمنام وفي أشباع سائر الضرورات المادية .

إن الانسان كائن ذو عقل وذو مشاعر ، يملك قدرة التفكير في أموره وفي

شؤونه ، وهو عندما يبقى وحيداً مع نفسه ومع ضميره يسائل نفسه : من اين أتى ؟ وإلى أين سيذهب ؟ وإلى إين ستنتهي هذه الحياة ؟ وهو يبحث دائماً عن جواب تطمئن إليه نفسه في مثل هذه المواضيع ، وهو لا يجد هذا الاطمئنان إلا في ظل الاعتقاد بقوة فوق قوة البشر supra humain يؤمن بها.ويجد الأمن والسكينة في رحاب هذا الإيمان وهذه العقيدة . والدين وحده هو الذي يستطيع أن يمد الانسان بمثل هذا الإيمان ، لذلك فإن الدين لم يكن وليد ظروف مادية واقتصادية بحتة لأنه في حقيقة الأمر تلبية لرغبة اصيلة كامنة في فطرة الانسان .

لا شك أن الدين تطور وتكامل ضمن مراحل التاريخ ولكنه لم يكن وليد عصر أو مرحلة من مراحل التاريخ . . صحيح أننا نجد في الأقوام البدائية شعوراً دينيا بسيطاً ساذجاً ، ولكننا لا نجد عندهم نظاماً متكاملاً لدين متعدد الجوانب ، ذلك لأن هذه الاقوام البدائية لا يكادون يفترقون عن البهائم ، وكسائر المشاعر والعواطف الراقية السامية يحتاج الشعور الديني والعاطفة الدينية لكي تنمو وتتكامل إلى وسط اجتماعي ناضج وإلى نضج عقلي معين .

وقد وجد هذا الوسط الاجتماعي المناسب في المراحل الأولى للتاريخ أثناء نزول الأديان السماوية في السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط في فلسطين والحجاز ، لذلك كان ظهور الأنبياء والأديان السماوية في هذه الديار .

إن تقدم الذكاء الانساني لا يمكن إن يقضي على العاطفة الدينية وعلى المؤسسات الدينية ولا ان يضعفها ، بل يؤدي إلى ترسيخ جذورها ويجعلها حاجة روحية لا غناء عنها ، ويمكننا أن نقول إن هذه الحاجة الروحية الملحة ظهرت إلى الميدان أوضح ما تكون وأقوى ما تكون بعد الحرب العالمية الثانية .

والخلاصة أن المادية التاريخية لا تحمل قيمة ولا تصلح إلا كسلاح

للهجوم . . وهكذا كان تطبيقها في عالم الواقع إذ إنها كانت سبباً لمعظم أحداث الشغب في مختلف البلاد ما يقارب القرن من الزمان ، ولكنها لا تحمل ولا تشتمل على وجهة نظر علمية يعتد بها . بل إننا إذا أمعنا النظر وفكرنا تفكيراً منصفاً لرأينا أن « المادية العلمية » كذلك لا تشتمل ولا تحوي على تفسير علمي له قيمة .

ماذا يقول الماديون العلميون :

إن المادية التي تسمي نفسها بالمادية العلمية لا تحمل تفسيراً للحياة وللكائنات له قيمة علمية كبيرة . . ولكي يقتنع القارىء في هذه الناحية سنلقي نظرة على فكرة وعقيدة الأديان والمادية العلمية كلاً على حدة .

فكرة الأديان عن الكون والحياة :

تقول الأديان والكتب المقدسة بإن هذه الكائنات قد خلقها الله المنزه عن الزمان والمكان ، الأزلي الأبدي والواجب الوجود Etre necessaire والقادر المطلق Tout puissant خلق الله هذه الكائنات من العدم وجعلها خاضعة مسيٍّرة بقوانين معينة وضعها لها .

إن الله أزلي ، أي ليست له من بداية ، لم يولد من أحد ولم يستحل أو يتطور من موجود آخر . إن الله أبدي ، أي ليست له نهاية ، لا يموت ولا يفنى مطلقاً ولا ينقص شيء من إرادته ومن قدرته ، وهو منزة عن المادة ، أي إنه فوق مستوى حواسنا الفانية القاصرة . لا تدركه الأبصار ولا تصل إليه الأيدي ولا تستطيع أية حاسة فينا أن تدركه أو أن تبلغه .

ثم إنه منزه عن الزمان والمكان ، أي إنه لا يدخل في حيز أي مكان وأي زمان لأنه محيط بكل مكان وكل زمان .

وكل شيء غيره ممكن الوجود Etre possible ولكن الله واجب الـوجود Etre necessaire أي أن وجوده لازم وضروري ولا يمكننا منطقيـاً أن نفكر أو نتصور امكان عدم وجوده .

والله قادر مطلق ، وكل شيء يدخل تحت هذه القدرة والارادة المطلقة دون حاجز أو مانع ، وليس هناك أي شيء يبقى خارج هذه القوة والقدرة المطلقة . وهو يتصف بكل صفات الخير والكمال والجمال كالعلم والعدالة والرحمة . . الخ والخلاصة إن الله تعالى فوق الطبيعة ووجوده لازم وضروري .

وهذه الذات الالهية خلقت السماوات والأرض والملائكة أولاً ثم خلقت النباتات والحيوانات على سطح الأرض وأخيرا خلقت الانسان .

والله تعالى خلق الانسان على مثال مصغر* ـ عاجز وقاصر ـ من صفات كماله ونفخ فيه من روحه . وهذه الروح سر إلهي لا يعلم كنهها سواه ، وبما أن الله جعل هذه الروح مثالاً ـ قاصراً وعاجزاً جداً ـ للذات الالهية لذلك فإن هذه الروح غير مادية وهي خالدة بالنسبة إلى الجسد أي أنها لا تفنى ولا تغيب إلا في أجل قد قدره الله تعالى .

والانسان يعيش بهذه الروح فإذا مات فارقته وتركته ، وكذلـك الحال بالنسبة إلى الحيوانات مع فارق واحد هو أن الروح في الانسان تختلف عن روح الحيوان اختلافاً بينا ، فروح الإنسان هي مركز للإحساسات السامية المعروفـة بالوجدان . بينما روح الحيوان تكون مركزاً للفطرة أو السوق الطبيعي .

---

* قال تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » الشورى ـ آية : ١١ .

إن الانسان يسوق ويدبر امور جسده وفكره ويطور وينمي وجوده المعنوي في تمييز الخير من الشر والخبيث من الطيب بواسطة روحه ، وبما أنها تصلح وتفيد في التفريق والتمييز بين الخير والشر لذلك فإن الروح تأخذ أسماء مختلفة أمثال « الشعور » أو « الوجدان » وتتجلى وتظهر إلى الميدان في شكل وفي قالب « الحس » و « العقل » و « الارادة » .

ولكل مخلوق على سطح هذه الأرض مدة حياة معينة يقال لها « الأجل » فاذا جاء الأجل لا يستأخر أحد أجله ساعة ولا يستقدم . والموت هو ترك الروح للجسد وانتقالها إلى العالم اللامادي ونقله من العالم الفاني إلى العالم الخالد الابدي . والانسان ـ بواسطة روحه الخالدة ـ يعيش في دار البقاء بالشكل الذي قد قدره له الله ، وبما ان الحياة الآخرة حياة أبدية ، لذلك فإن الانسان يجازى هناك على أعماله إن كانت خيراً فخيراً وإن كانت شراً فشراً .

والله تعالى أنزل الكتب المقدسة وأرسل الأنبياء إلى الناس حتى يبلغوهم ويعلموهم هذه الحقائق ، والفلاح في الحياة الآخرة هو للذين يسيرون في الطريق الذي رسمته هذه الكتب المقدسة الالهية مسترشدين بالأنبياء الكرام .

فكرة الماديين عن الكون وعن الحياة :

هذه هي أسس العقائد[٢١] في الأديان السماوية وخاصة في الدين الإسلامي ، وهذه العقائد هي التي يحاول الماديون نقضها وإثبات خطئها . والحقيقة أن المادية التي تسمي نفسها بـ « المادية العلمية » لا تعتقد بوجود الله

(٢١) في موضوع اسس العقائد الاسلامية انظر كتاب « الجواب على الكنيسة الانجليزية » لعبدالعزيز جاويش .

القادر المطلق وانما تقيم مكان هـذه العقيدة « جـوهراً[٢٢] » تسميهـا « المادة » (Matiere) وتقيم بدل القوانين الإلهية قوانين « الصدفة » Contingents وقوانين السببية causalite وبينما الأديان السماوية ـ وخاصـة الدين الإسـلامي ـ تعتبر القوانين الطبيعية قوانين إلهية وضعت من قبل إرادة الله الأزلية حسب خطة معينة ونحو غاية معينة ، فإن الماديين يقولون بإن هذه القوانين ليست موضوعة من قبل أحد وإنما هي نتيجة الصدف وقد تأسست من نفسها دون تدخل أحد .

والأصل المشترك في الكون وفي جميع الأشياء والموجودات بالنسبة إلى هؤلاء هو « المادة » ، فالمادة أزلية وأبدية أي إنها كانت موجودة وستظل موجـودة على الدوام وهي ليست من صنع خالق وليس لوجودها من بداية ولا من نهاية وهي غير قابلة للإفناء ولكنها في استحالة دائمة يتغير شكلها باستمرار . تنمو الشجرة من الارض وتكبر وتورق ثم تذوى وتجف وتعود مرة اخرى الى التراب ثم تنمو من ذلـك التراب شجـرة اخرى . . وهكـذا باستمـرار . . ولكن المادة أثنـاء هذه الاستحالة من شكل إلى آخر لا تفقد من جوهرها ولا من جزيئاتها Molecules شيئاً ولا يفنى أي جزء منها أبداً ، والجزيئات التي تؤلف جسماً ما تغير من شكلها تحت تأثيرات ميكـانيكية أو كيمـاوية وتتحـول إلى جسم آخر وإلى شكـل آخر فمثلا : ان جسماً عضوياً حياً بعد أن يموت يتفسخ ويعود تراباً ، ولكن المادة لا ينقص منها شيء ولا تفنى وانما تغير من لونها ومن شكلها ومن وضعها فقط .

والمادة لها خصائص وصفات لا تفارقها أبداً ولا يمكننا أن نتصـور المادة

---

(٢٢) كلمة « الجوهر » هنا تأتي ضد « العرضي » ، ونعني منها الشيء الباقي دائماً من الاشياء التي تتغـير اشكالهـا بصورة دائمـة . مثلاً الشمـع يسخن فيلين ، يـذوب ، يبـرد ، يتصلب . . كل هذه صفات متغيرة للشمع ولكن هناك شيء . لا يتغير بتغير الصفات وهو جوهر الشمع . « substance » .

بدون هذه الصفات ، والشكل العام لهذه الصفات والخصائص هو « القوة » فلا توجد مادة بلا قوة ولا توجد قوة بلا مادة . فلكي نتصور الحركة لا بد أن نتصور جسماً متحركاً ، ولكي نتصور الحرارة لا بد ان نتمثل أمام أعيننا جسماً مشتعلاً ، وكذلك لكي نتصور جسماً متحركاً لا بد أن نتصور الحركة أيضاً والعلم الآن يقول : كما ان المادة تغير من شكلها دون ان يفنى شيء منها كذلك القوة تتغير من شكل الى آخر دون تناقص في كميتها اذ تتحول الحرارة إلى حركة والحركة إلى حرارة . . الخ .

وكما أن المادة والكائنات ليست من صنع خالق ، كذلك فإن الانسان والحياة ليسا أثراً لخالق ، وما هذه الحياة علي سطح هذه الأرض إلا من آثار الصدفة ، قد تكونت بنفسها دون تدخل أحد ، ثم ارتقت هذه الحياة من أطوارها البدائية إلى المراحل العضوية الراقية تحت عوامل وتأثير قوانين الاستحالة والإرتقاء فالاستحالة transformation والارتقاء Evolution هما أكبر قوانين الحياة .(٢٤)

والخلاصة إن الماديين على اختلاف مشاربهم وألوانهم يعتقدون بقدرة الذكاء الانساني المطلق وبقدرة العلم المتقدم دوماً إلى الأمام وينكرون جميع العقائد الدينية ويقولون بأن هذه العقائد وإن كانت تحمل قيمة في العصور الغابرة حيث كان الجهل سائداً فإنها فقدت قيمتها بعد أن أنار مشعل العلم الطريق أمام الانسانية وفسر جميع المعضلات والأسرار الطبيعية واحدة إثر أخرى وأصبحت

---

(٢٤) انظر الى :
Spiritualisme et Materialisme, Par Felix Ismard, Paris Reinwald et Cie 1879 - Religion et evolution, Par Ernst Haeckel Paris, Reinwald, 1906- Le Monisme (Proffession de foi d'un naturaliste) Par E.Haeckel , Paris , Schleicher Freres

هذه العقائد من الذكريات القديمة الغامضة للعهود الغابرة .

يقول أحد الماديين المتعصبين « إن الأديان كانت مفيدة في عهود الجهل ولكن بما أنها لا تستند على أي أساس علمي فإن الأمم بعد أن تستضيء بضياء العلم سوف تزول منها الأديان في وقت قريب »[٢٥]

نقد المادية العلمية :

إن فكرة الماديين هذه قد تكون جذابة وبراقة في أعين الكثيرين[٢٦] في الوقت الحاضر لأنها تستند - في الظاهر - على حقائق العلم التي لا مجال للشك من صحتها والتي غزت القلوب واستولت عليها .

إن الانسان في الوقت الحاضر يستطيع - إذا تجرد من الحياء ومن الخجل - أن يخدع كثيراً من البسطاء وأن يكذب عليهم تحت ستار التكلم باسم العلم . لقد ترك تجار الدين الذين وضعوا الكرة الأرضية على قرني ثور . . ترك هؤلاء مكانهم اليوم لتجار العلم الذين يجهلون أبسط مبادىء العلم .

لقد كان تجار الدين المخادعون يدعون بأنهم يتكلمون ورائدهم هو رضوان الله ومحبته ، أما تجار العلم اليوم فإنهم يتسترون خلف كلمات رنانة أمثال « التقدمية » و « الانسانية » وليس هناك من فارق بين هاتين الفئتين فكلاهما في الخداع والتضليل سواء .

---

(٢٥) انظر الى
Dr. Felix Ismard, Spiritualisme et Materialisme,. Paris, Reinwald p.154

(٢٦) إن بريق هذه الفكرة يزداد لدى الذين يجهلون الإسلام وتعاليمه ، ولكن الوزر يقع على عاتق الذين لا يبلغون الاسلام والذين حرموا البلاد من الأشخاص الأكفاء أكثر مما يقع على عاتق الذين يجهلون الاسلام . .

ولكن لنقف ولنفكر ملياً حول هذه الأسئلة : هل يمكننا إنكار الدين وإنكار الله باسم العلم الحديث ؟ وهل ينفي العلم الدين ويبطله ؟ وهل هناك من تضاد مستحكم ومن خلاف مستمر بين العلم والدين ؟

ولكي تتضح أجوبتنا على هذه الأسئلة لا بد لنا أن نشرح التبدل الشامل العميق في تعريف وفي مفهوم العلم في العصر الأخير ، لأن أكثر الذين يهاجمون الدين باسم العلم والذين يرون تناقضاً بينهما يجهلون هذا التغير الشامل الجذري .

التبدل الواقع في مفهوم العلم :

كانت كلمة « العلم » قديماً تعني المعرفة المطلقة القطعية للكائنات وللطبيعة . ودام هذا المفهوم للعلم طيلة القرن التاسع عشر وامتد إلى سنين قريبة . فحسب هذا المفهوم الخاطىء كان العلم يعني المعرفة التي توصل الذكاء الانساني إلى إثبات صحتها وإلى استخراج نتائجها بصورة لا تقبل الشك أو الريبة .

وكان لا بد أن يتصادم العلم ـ تحت هذا المفهوم وبهذا المعنى ـ مع الدين ، وكان لا بد أن ينكر جميع الأديان من اساسها لأن العقائد التي تشكل لب الدين كعقيدة الله واليوم الآخر ـ بالنسبة إلى هذا المفهوم وهذا التعريف ـ لم تثبت صحتها ولم تبرهن على أنها حقيقة ، فنظر إليها على أنها من باب الأوهام والظنون .

وثانياً ، إن العلم ـ حسب هذا المفهوم القديم ـ لم يكن يعني المعرفة القطعية الأكيدة فحسب ، وإنما كان يعني المعرفة المطلقة الشاملة أيضاً ، أي إنه

ليست لساحة العلم من حدود ، وليس هناك من موضع لا يستطيع العلم أن يبحثه أو أن يبقى خارج تناوله ، وأية حقيقة ـ لكي تثبت على أنها حقيقة ـ لا بد لها من أن تدخل داخل إطار العلم والا فإنها كانت تطرد وتنزع عنها صفة الحقيقة .

هذا المفهوم هو الذي تغير في العهد القريب ، فالعلم اليوم ليس المعرفة الثابتة القطعية ، لأننا إذا وضعنا علم الرياضيات جانباً وتناولنا العلوم الطبيعية فإننا نرى أن أكبر قانون لها وأشملها هو النسبية ، بل لا أدري هل هناك من ضرورة لاستثناء علم الرياضيات من هذا القانون ؟ لأن موضوع علم الرياضيات هو الخصائص الفيزيائية التي نجردها من الأشياء ونتمثلها في الذهن كالكمية مثلاً ، وإذا كان قانون النسبية هو أكبر قانون يتحكم في الأشياء ألا يكون قانوناً لخصائصها أيضاً ؟ وعلى كل فلندع جواب هذا السؤال لأصحابه المختصين ولنعد إلى موضوعنا .

لم يعد العلم اليوم ذلك البحث والذكاء والكشف الانساني الذي لا يعرف له من حدود بل على العكس فإن مواضيع العلم الحديث وساحة فعاليته وبحوثه قد تحددت وتوضحت . إن العلم أصبح اليوم يستند على التجربة والمشاهدة فقط في طريقة لاستجلاء الحقائق واكتشافها فقد تركت ألاعيب المنطق في العلم القديم مكانها اليوم للتجربة والمشاهدة والمقايسة ، ولم يصل العلم إلى هذه النتيجة إلا بالاستناد على تجاربه الطويلة القاسية التي بدأ بها من اليونان القديم والتي استغرقت كل هذه العصور العديدة .

ولكن العلم بفضل هذه طريقة توصل إلى حقائق قيمة ، فبينما كان العلم في القديم غير واثق من نتائج بحوثه لأنه كان غير واثق من سلامة الطريق الذي

يسلكه ، نرى العلم الآن بفضل طريقته التجريبية واثقاً ومطمئناً من نتائج بحوثه يعرف ماذا يعمل وفي أي طريق هو سائر ، وهو بهذه الطريقة قد فرض نفسه على الجميع على مختلف مداركهم ومستوى عقلياتهم كحقائق واقعية وإن كانت لها صفة النسبية .

ولكني أرجو من القارىء أن يلاحظ أن العلم الحديث بجانب اكتسابه هذه النتائج الباهرة بفضل طريقته التجريبية قد إضطر إلى التضحية بالشيء الكثير أيضاً . إنه اضطر إلى أن يحدد ساحته والى ان يعترف بهذا . ففي الأدوار التي كان العلم فيها عبارة عن ألاعيب المنطق والذكاء لم يكن هناك من حدود لمزاعم مدعي العلم ، فإن هؤلاء ـ كأغنياء الحرب ـ كانوا ينظرون إلى ما حولهم بخيلاء وبغرور ويظنون أنهم ـ بعلمهم الضئيل ـ لا يعجزون عن تفسير أي شيء في الكون ، وليس هناك من شيء يخفى عنهم أو يستعصي على علمهم ، بينما علماء اليوم في غاية التواضع بعيدون عن أمثال هذه المزاعم والادعاءات لأن العلم اليوم يعرف حدوده ولان عالم اليوم يعرف عجزه ويعترف به .

إذا دققنا النظر نرى أن تواضع العلم الحديث كان نتيجة للطرق التي يتبعها في بحوثه والتي تختلف حسب الضرورة فهي أحيانا تجريبية Experimentation وهي أحياناً استقرائية induction وهي احيانا مشاهدة observation وهي احياناً مقايسة comparaison . . هذه هي طرق البحث في العلم اليوم . وكل من لا يسير على ضوء هذه الطرق فإنه لا يستحق أن يحمل لقب عالم ، وكل من سار على هدى هذه الطرق ولكنه لم يستطع أن يدقق بعض المسائل أو أن يبحثها بواسطة التجربة أو المشاهدة أو الاستقراء أو القياس فإنه لا يستطيع أن يصدر أحكاماً اعتباطية بشأنها ولا يستطيع أن ينكرها وينفيها ، فإن فعل هذا فإنه يكون قد خرج خارج حدود العلم وتكلم على غير أساس .

الحقائق الخارجة عن حدود ساحة العلم :

والخلاصة إن تبدل الطريقة العلمية ، أو بالأصح إن إختيار وترجيح العلم للطريقة اللائقة به والملائمة له أدى إلى تضييق ساحة بحوثه وإلى تحديد الساحة التي يستطيع فيها أن يصدر أحكامه وأن يدلي بكلمته .

إن هذه الساحة ـ إذا استثنينا الرياضيات ـ قد انحصرت في العالم المادي المحسوس . . وهذا شيء طبيعي إذا تذكرنا أن وسيلة العلم في البحث والتدقيق هي قياس الأبعاد والأثقال ، وهذا ينحصر بطبيعة الحال في الأشياء المادية ، لأن الأجسام المادية هي التي تحتوي على خصائص الطول والعرض والعمق والثقل . . الخ القابلة للقياس والوزن .

لذلك فإن العالم غير المحسوس والعالم اللا مادي يبقى خارج إطار العلم ، والعلم لا يستطيع أن يصدر أي حكم سواء كان نفياً أو إيجاباً ، انكاراً أو تصديقاً في المسائل التي لا تدخل في المختبر ولا تجري عليها الأقيسة .

إن العلم يستطيع إن يقول شيئاً واحداً حول العالم اللا مادي الذي استحال عليه تدقيقه ، إنه يستطيع أن يقول فقط : « لا أدري » .

إن المواضيع الدينية كعقيدة الله واليوم الآخر والمسائل المتعلقة بهذه العقائد هي : حقائق تعود إلى العالم اللا مادي ، وإن إصدار أي حكم باسم العلم ، وإن إنكار هذه الحقائق والأمور باسم العلم ، إنما هو افتراء عليه واستغلال أثيم له ، لأن هذه العقائد الدينية خارجة عن تناول البحث العلمي ، لأنها لا تدخل داخل نطاق التجربة والمشاهدة والمقايسة العلمية وداخل المختبر العلمي .

إن تجارب الحياة وحدها ـ لا المخابر العلمية ـ هي التي تستطيع أن تبين لنا

قيمة هذه العقائد ، فالانسان كلما سار وتقدم في درب هذه الحياة اتضح له أن فراغ القلب من العقيدة ومن الإيمان لا يعوضه ولا يملؤه المنصب ولا الجاه ولا الثروة ولا أي عرض من أعراض هذه الدنيا .

بل إننا إذا تأملنا ودققنا النظر لرأينا أن المواضيع الخارجة عن نطاق العلم لا تقتصر على العقائد الدينية وحدها ، فكنه المادة والقوة ، ومنشأ الشعور والاحساس وحركته ، وما هية العقل والإرادة ، ومدى حرية هذه الإرادة كلها من الأمور اللا مادية وكذلك الخير والشر ، العدالة والظلم ، الفضيلة والرذيلة ، وأشباهها من القواعد الأخلاقية كلها تبقى خارج حدود ونطاق العلم ، بل أننا نستطيع أن نقول بأن المواضيع الخارجة عن ساحة العلم بالنسبة إلى المواضيع الداخلة في ساحته بمثابة البحر الواسع إلى قطرة ماء وإن نسبة ما يعلمه الانسان إلى ما يجهله كذرة في فلاة مترامية الأطراف .

والخلاصة إننا رأينا سابقاً أن الانسان والحياة بالنسبة إلى الماديين ليسا غير امتداد للمادة التي تحكمها قوانين التطور والارتقاء ، ولكن وجهة النظر هذه ليست تعبيراً عن « نظرة علمية » ، فهي لا تتعدى مجرد « فرض » و « تخمين » ، وذلك لإنها لا تستند على أية تجربة أو مشاهدة ، فهي ليست بأية حال من الأحوال أقوى من عقيدة الإيمان بوجود الله ، هذا بالاضافة إلى أننا سنرى بعد قليل كيف أن الايمان بوجود الله يكون عاملاً في رفع مستوى الانسانية والمجتمع ، بينما عقيدة الماديين في الاستحالة تكون عاملاً في الحط من هذا المستوى وفي تمرغ الانسانية بالأوحال .

العلم والحياة العملية :

إن العلم ليس معين الحدود من الناحية النظرية فحسب ، بل إن ساحته محددة من الناحية العملية أيضاً ، لأنه عجز عن أن يعطينا أو يدلنا على طريق أمين وسليم لطراز وأسلوب حياتنا . إن الحياة العملية للانسان تحتاج إلى بعض قواعد السلوك التي لا يستطيع العلم تعيينها وتوضيحها لنا ، وليس في إمكانه أن يضع لنا منهجاً معيناً واضح المعالم في الحياة ، فهو لا يدلنا على الخير ولا يعطينا معلومات كافية حول الأمور التي لها قيمة كبيرة ودلالة عظيمة في حياتنا ، لأن الخير والجمال والحق والعدالة والرحمة والانسانية . . كل هذه الصفات لا تحمل قيمة ولا تفيد أي معنى وليس هناك من فرق حاسم بينها وبين صفات الشر والقبح والظلم أمام مقاييس العلم ، ذلك لأن العلم عند إصدار الأحكام وعند استخراج واستخلاص النتائج يكون غير وجداني وغير أخلاقي « Amoral » وكما أن العلم لا يعطي مُثلا وقيما للفرد فإنه كذلك لا يعيّن أي مثل وأي قسطاس للمجتمع ، فسواء عنده أعاش الناس في سعادة وفي أمن وسلام أم عاشوا كالذئاب الضارية يفترس بعضهم بعضاً ، والأدلة على هذا كثيرة ومتعددة : فالعلم كان له نصيب كبير وحصة بارزة في فواجع وكوارث الحرب العالمية الأولى والثانية ، فالقنابل التي كانت تنهمر كالمطر من السماء كانت تقتل الأطفال والشيوخ والنساء الحوامل أيضاً .

إن هذا لغز . . فبينما نرى العالم يضحي بنفسه من أجل إنقاذ نفس واحدة ، نرى آخر لا يتورع من صنع القنابل والغازات السامة التي تقتل الآلاف ، أي إن العلم لا يرسم طرزاً معينة للحياة العملية ولا يشير إلى طريق معين نسلكه ، فإذا لم يتعاون ولم يتحد مع الإرادة الحازمة المتوجهة إلى الخير فإنه لا

يعني شيئاً ذا قيمة لنا . كلنا يعلم أن المسكرات والمواد المخدرة ضارة بالصحة وكثيراً ما جلبت الكوارث والمصائب ، ومع هذا فإن الكثيرين لا يتورعون عن شربها وعن تناولها ، وكذلك فإننا جميعاً نعلم مدى فائدة التعاون وأثره الطيب في المجتمعات ولكننا مع هذا لا ننفك نتخاصم ونتشاجر . . ومن هنا نخرج بنتيجة واحدة وهي أن العلم ونتائجه وقوانينه ليس كافيا على الاطلاق في حياة الأفراد والمجتمعات .

والعلم إذا لم تصاحبه الإرادة المتوجهة إلى الخير والجمال فليس في إمكانه أن يكون مرشداً خيراً بأي حال . ولكي نستطيع قطف ثمار التقدم والرقي - يجب أن يتحد العلم مع الارادة الخلقية وأن يتأسس التوازن بين الجسم والروح وبين المادة والمعنى ، وهذا لا يتأتى إلا بالارتباط بعقيدة وبإيمان أسمى من هذا العالم المادي .

ولكي ينقلب المجتمع إلى عش من السعادة يجب على الفرد إن يشعر بالمسؤولية وبالمصلحة العامة وبالأمل في المستقبل والسعي إلى حياة أفضل ، والمجتمع الراقي المتكامل يطلب من الفرد التضحية وإنكار الذات وقد يطلب منه حياته إذا لزم الأمر ، وبما أن العلم لا يخطط طرازاً معيناً من السلوك ولا يقول للفرد : « تصرف هكذا او تجنب ذلك » ولا يلقنه التضحية والفداء ، إذن أين ذلك العلم ذو المفعول السحري الذي يستطيع أن يقنع الفرد بان يضحي بنفسه في سبيل الآخرين وأن يضحي بمصالحه أمام المصلحة العامة ؟

إن العلم لا يستطيع إن يرتفع إلى هذه المرتبة ، ولم يكن في يوم من الأيام قوة كافية لتلقين الافراد مثل هذه المعاني والمثل الراقية . إن الوجه البارد للعلم لا يستطيع تهذيب طبائع الانسان الذي فطر على الأنانية وحب الذات ، وتنمية مشاعر الحب والرحمة في قلبه ، وإنما تصفو نفوسنا وتجد السكينة والسمو في رحاب

العالم اللا مادي تحت ظل عقيدة روحية .

وخلاصة القول إن العلم بفضل استناده على التجربة والمشاهدة والقياس قطع خطوات كبيرة إلى الأمام ، ولكنه من ناحية أخرى اضطر إلى تقليص ساحته صلاحياته على العالم المادي المحسوس دون أن يتمكن من الدخول والنفوذ إلى العالم اللا مادي الرحب الواسع ، لأن هـذا العالم لا يمكن أن يخضـع للقياس والتجربة والمشاهدة ، لذلك فإنه لا يستطيع أن يصدر حكم النفي أو الرد على العقائد الدينية المتعلقة بذلك العالم اللا مادي غير المحسوس وكل من ينفي هذه العقائد باسم العلم فهو مدع كاذب .

قيمة العلم في ساحته :

هذا العلم العاجز تماماً في المواضيع اللا مادية ، هل هو ذو صلاحية مطلقة في ساحته أي في العالم المادي المحسوس ؟ وهل يستطيع أن يكون واثقاً تمام الثقة من النتائج التي يتوصل إليها بنفسه بفضل الطرق التي وضعها للبحث دون أن يكون هناك مدخل لشبهة أو لشك ؟

هذه الاسئلة تستحق التفكير العميق والتأمل الدقيق ، وأنا أعترف بأنني لا أملك صلاحية لحل مثل هذه المسائل الكبيرة ولست من المختصين بهذه الأمور ولكن لكي تتضح القضية وتستبين ملامحها سنقول بأيجاز إننا نستطيع الشك في قدرة العلم وفي قيمته حتى في المواضيع التي تدخل ضمن إطاره .

أجل لقد كانت القناعة التامة والاتجاه العام ـ حتى زمن قريب ـ بأن النتائج التي توصل إليها العلم لا شك في صحتها ولا ريب في قطعيتها وإنه ليس هناك مكان للشك في قطعية قوانين « نيوتن » ، هذه القوانين التي كانت هي ونتائجها

في مرتبة الحقيقة الثابتة ، وكان العلم الذي أرسى قواعده على هذه القوانين يحمل قدسية صارمة . ولكننا اليوم نعلم بأن تلك القوانين ونتائجها نسبية ، فبالأمس كنا ننظر الى الجاذبية الموجودة في الطبيعة على أنها « قوة » ولكننا اليوم نعلم بأن الجاذبية ليست إلا خاصية للمكان والحيز propriete de l'espace .

لقد كان العلم في القرن الماضي كالشاب الساذج المغرور بشبابه وبقوته يسبح في بحر من الأمل لا يعترف بحدود لإمكانياته ، وكان يعتقد أن بإمكانه تمزيق الستائر عن أسرار الطبيعة اللا نهائية الواحدة بعد الأخرى ، أما اليوم فقد ضعف هذا الأمل وهذه الثقة في العلم الذي أصبح يحس بأنه ـ بالنسبة إلى رحابة الكون وأسراره اللا نهائية ـ كذبابة صغيرة أمام قرني ثور . لأننا اليوم نعلم بأن الساعات الدقيقة ـ الكرونومترات ـ الموجودة في أيدينا ، وكذلك وحدات القياس الأخرى ، ما هي إلا اشياء متحولة ومتغيرة ، وهي صحيحة وذات قيمة على سطح كرتنا الأرضية فقط ، ومفهوم الزمان والمكان والحركة عندنا هو من صنع أنفسنا وتابع للشروط والظروف التي نعيش فيها على سطح هذه الكرة الأرضية . فكأننا نعيش في دنيا من المرايا تخيل إلينا الأشياء التي نراها ونعرفها بأنها من الحقائق الثابتة ، ولكنها ليست إلا أخيلتنا المنعكسة إلينا من هذه المرايا .

والقوانين الحالية التي تشرح حركة الجزيئات وخواص المادة ـ التي عُبدت كإله ـ انقلبت الى مجموعة من الرموز ، لأنه لم يعد في الامكان شرحها بكلمات وجمل ، وبينما كان الفيزيائي حتى الأمس القريب يتكلم بالاسلوب القطعي الاكيد الخاص بانصاف العلماء ويؤمن ببداهة النتائج التي توصل إليها ، نراه اليوم يأخذ مكانه بجانب علماء الاقتصاد والاجتماع وبجانب الفلاسفة في عدم التسرع والتمهل والنظر إلى جميع الأشياء نظرة الشك ، لأنه يعلم أن الفيزياء اليوم

كزورق سابح في بحار الفرضيات والاحتمالات مثله كمثل العلوم الاجتماعية . وهذا الوضع لا يقتصر على العلوم الموضوعية (Positive) كالفيزياء فحسب ، بل أن العلوم القطعية الأكيدة (Exacta) كالرياضيات لم تسلم من هذا المصير ولو كانت بنسبَة أقل .(٢٧)

والخلاصة أن العلم اليوم قد نضج وعقل ، وأن عالم اليوم أكثر تواضعاً وأقل كبرياء ، وهذا شيء طبيعي ، فالعلم لا يبين لنا المنشأ (origine) ولا الماهية (essence) ولا يعطينا أية معلومات عنها . فهو لا يشرح لنا حقائق الاشياء (noumene) وإنما يقتصر على شرح صفات الأشياء (phenomene) وخواصها ، فمثلا : الكهرباء ، لا نعلم ماهيتها مع أنها دخلت حياتنا اليومية ونحن نستعملها في مختلف الشؤون والأغراض(٢٨) والعلم لا يعرفها ولا يستطيع شرحها لنا .

إن معرفة ماهية الأشياء غير ضرورية ، وليس من الواجب على العلم أن

(٢٧) أوصى القراء الذين يرغبون في الاستزادة من هذا الموضوع بقراءة الكتاب القيم للبروفسور جيمس :

La fonction sociale de la religion
"La fonction sociale de la religion" par E.O. James, prof. D'Histoire et de philosophie des religion's a' L'universite de londres, Payot paris, 1990

وفي موضوع العلم والدين
"Science et religion", par Emile Boutrou C.E.Flammarion, Paris

وأيضاً :
"les fondements de la religion", par J.V. linden, Payot, Paris

(٢٨) أن علم النفس علم يهتم بحالات الشعور أو الوجدان (etats de conscience) ولكنه لا يعرف ولا يهتم كذلك بمعرفة ماهية الوجدان ولا يعنيه ماذا يكون الجواب على سؤال : ما هو الوجدان ؟ إنه فقط يهتم بحالات الوجدان وحقائقها كالتأثر والذكاء والشعور .

يبحثها ويدققها أن العلم مكلف فقط بتسخير المادة للحياة العملية ، فإذا توفق ونجح في هذا المضمار فإنه يكون قد أدى رسالته وقام بمهمته ، وهذا هو النهج الذي يسير عليه العلم اليوم فهو يحصر جهده وهمه في الحياة العملية ويسجل تقدماً هائلا في هذه الناحية ولكنه من ناحية أخرى يعترف بأنه يسبح في دنيا من الاسرار في موضوع ماهية الاشياء ويعترف كذلك بانه غير معصوم من الخطأ عند استخراج نتائج بحوثه . . . إذن لقد نضج العلم وتخلص من غروره القديم .

وبما إن العلم محدود من ناحية سعته وشموله وعمقه ـ لأن وسائله محدودة ـ لذلك فليس هناك من مانع منطقي من الإيمان بوجود عالم العقائد الخارج عن نطاق العلم ، والماديون لا يستطيعون إنكار ضرورة هذا الإيمان ولزومه في حياة الانسان باسم العلم . إننا إذا لم نستطع أن نرى ونميز نقاط حركة سيارة منطلقة بسرعة كبيرة فإن هذا لا يبرر إنكارنا لهذه النقاط لأننا نعلم بصورة قطعية بأن السيارة قد تحركت من نقطة ما وهي تواصل السير إلى نقطة أخرى .

وفي الحقيقة إننا إذا دققنا النظر نرى أن العلم في نتائجه ـ كالدين ـ هو نظام لإيمان وعقيدة ، مع وجود فارق واحد وهو أن إيمان العلم ينشأ من التجربة والمشاهدة والمقايسة ، بينما ينشأ الإيمان الديني من الإلهام القلبي ومن شفافية الأحاسيس ، العلم ينشأ من الذكاء،والدين والإيمان ينشآن من الحس والإرادة وليس هناك من حاجز أو مانع على الاطلاق من أن يسير الدين والعلم جنباً إلى جنب وأن يعيشا معاً ، وهما يعيشان معاً في نفوس وفي قلوب كثير من الفلاسفة والمفكرين مما يشكل أكبر برهان على كلامنا وإن الذين يرون تناقضاً بين الدين والعلم أو يرون الدين مانعاً للتقدم العلمي ليسوا سوى مدعين كاذبين للعلم .

الفصل الثاني

ما هو الدين :

الله والدين :

أولا : ما هو الله ؟

مهما تتخيل الله فهو خلاف ذلك ، ولكنه موجود ، ومن الممكن إنكاره إذ بعضاً من الذين ضلوا الطريق ينكرون وجودة . إن طلب الدليل على وجوده إنما هو بحث عن عذر لإنكاره ، وإن إنكاره إنما هو عبادة للباطل ومحاولة إثباته تعب لا طائل تحته ، هو موجود لأن الانسان موجود والكائنات موجودة . إن الدليل على وجوده هو إحساس ضميري به وقلبي الذي يطلبه والشخص المفكر لا يجد مجالاً لإنكاره .

ما هو الدين ؟

الدين . . . هذا النور الإلهي ماهو ؟

هو يمثل كل شيء ، هو القانون الإلهي الذي تحسه الأرواح وتقبله العقول السليمة وكما يحس الانسان بجمال الفن الرفيع وبجمال الأخلاق وبالشعور الانساني ، كذلك يحس ولكن بدرجة أعمق وأسمى بالدين ، يحس به بقلبه ويقبله بعقله من بعد تأمل . إن الدين هو أنبل مدرسة للروح الإنسانية ، وهو

أفضل إيضاح للسؤال الذي يتردد في ذهن الانسان ـ الذي ارتفع عن مستوى الحيوان ـ عن « العلة الأولية Premiere cause » وهو الجواب على سؤال : « من أين أتينا ، وإلى أين نحن ذاهبون ؟ » وهو ضياء الأمل في نفس الانسان الذي يخشى أن يذهب إلى ظلمات الفناء ، وهو العلاج للآلام التي تعجز الأدوية عن تهدئتها وإزالتها ، وهو سرور القلوب البائسة وينبوع الخير والعدالة والتضحية والإخلاص والفضيلة والأخوة الصادقة ، وهو التجلي النهائي لحاجة العقيدة في ضمير الانسان .

إن الانسان مخلوق يشعر ويفكر ويرغب ويؤمن . . . هذا هو التعريف الكامل للانسان ، وإذا تأملنا نرى أن الحيوان يشارك الانسان في ناحية الشعور والى درجة ما في ناحية التفكير والرغبة ، ولكن ميزة الإيمان خاصة ببني الانسان ولهذا كثيراً ما عُرّف بأنه « المخلوق المتدين » . والحقيقة إن الانسان السوي يحتاج إلى عقيدة ، إذ أن هذه رغبة أصيلة وعميقة في روح الانسان . إن الشخص الذي لا يؤمن ولا يحمل عقيدة بين جنبيه يكون ظمآناً أبداً إلى الثروة وإلى وسائل الراحة والملذات كالمريض الذي لا يرتوي من الماء . وهذا الشره ضار بالنسبة إلى المجتمع وبالنسبة إلى الفرد نفسه ، والدين هو الوسيلة المعنوية الفعالة لـ « فرملة » شهوات الانسان هذه .

لذلك نرى أن الدكتاتوريين المتأخرين يخشون منافسة الدين لسلطتهم وذلك لمعرفتهم بقوة تأثير الدين على الجماهير ، لذا دخلوا في صراع معه وحاولوا أن يجعلوا من الدولة معبوداً جديداً لملء الفراغ بعد إبعاد الدين ، ذلك لأنهم يحدسون بأن أي شعب يحتاج إلى الارتباط بمثل عليا ، ولا يمكن أن تكون هناك عقيدة للجماهير دون أن يكون هناك « معبود » ، ولكن المعبود الجديد الذي أتى

لا يتسلى ولا يشفى غليله إلا بمشاهدة مؤمنيه وهم يتخاصمون ويتشاجرون في البارات وفي الحانات .

الدين وفكرة الوجود بالصدفة :

الدين هو ضياء لروح الانسان المتشكك ، وهو ليس إشباعاً لحاجة الإيمان في الانسان فحسب ، بل هو إشباع لحاجة المعرفة كذلك . فالانسان المفكر يرغب في معرفة العلة الأولى للحياة وللكائنات Premiere cause والحلقة الأولى في سلسلة حلقات الوجود والحوادث . وعندما ينفرد الانسان بنفسه ويفكر يبحث عن جواب للأسئلة التي تدور حول الحياة والموت : من أين ولماذا أتى ؟ وإلى أين هو ذاهب ؟ أنني أعلم بأنني أتيت إلى الدنيا نتيجة عملية الحب بين والدي ووالدتي ، وإنهما جاءا من جدي وجدتي ، ولكن كيف وجد أول والد وأم ؟ .

لنأخذ الانسان ، فهو بنظر الماديين نتيجة لعمليات الاستحالة والاختيار طيلة مئات الملايين من السنين . ولكن من أين أتى الحيوان الأول من هذه الحيوانات التي تعرضت لعمليات الاستحالة وكيف وجد ؟

لنأخذ المادة . . . كيف تفجرت فيها الحياة ؟ هذه المادة الجامدة كيف ظهر فيها الشعور والارادة والذكاء وسائر الملكات الروحية ؟ إن استحالة المادة إلى مادة ممكنة وأنا أقبلها ، ذلك لأنني أرى أن الشجرة تنبت وتكبر ثم تجف وتذوى في التراب ، ثم تنبت من جديد . وهذه استحالة دائمة ومتكررة ، ولكن كيف تفسرون لي استحالة المادة الجامدة إلى مادة حية زاخرة بالشعور ، ثم ماذا تقولون عن استحالة الحياة بالموت الى فناء وعدم ؟ أي سر يكمن وراء ظهور قابلية الشعور أولاً في المادة الجامدة ثم ظهور قابلية التفكير والرغبة وأخيراً قابلية الإيمان

كما هو مشاهد في الانسان ؟

أنني أعلم وأشاهد بأن الشمس هي منشأ الحرارة في الأرض ولكن ما منشأ الحرارة في الشمس وكيف وجدت ؟ إن قانون « السببيه Loi de causalite » الذي هو من أعم قوانين الكون يقضي باستحالة وجود شيء من لا شيء ، فلكل موجود لابد من علة وسبب « Cause efficiente » ولكن لابد أن يكون هناك مبدأ وبداية لحلقة هذه الأسباب وإلا لدخلنا إلى دائرة مفرغة ، وهذا المبدأ يجب أن يتصف بالعلم وبالارادة المطلقة ، ذلك لأننا نحدس عند مشاهدة أية ذرة في هذا الكون ـ الذي هو نتيجة لعلة ـ بأن وراءها عقلاً وذكاءً وإرادة مطلقة . والخلاصة أن سلسلة الأسباب والعلل لابد أن تنتهي إلى سبب ليس له سبب ، ولابد أن تنتهي إلى خالق غير مخلوق ، وهذا المبدأ النهائي والعلة الأولية والخالق الذي لم يُخلق هو الله تعالى الذي يخبرنا عنه الدين .

ثم إن هناك قانوناً عاماً آخر غير قانون السببية هو قانون « الحركة Mouvement » ، فكل ما في الكون ـ سواءً كان حيا أو بلا حياة ـ يخضع لهذا القانون ، حتى الجبال الرواسي والصخور الشماء خاضعة لهذا القانون . ولكننا نعلم بملاحظة بسيطة بأنه حتى تكون هناك حركة فلابد من وجود محرك أي سبب للحركة ، ولابد من وجود متحرك أي الشيء الذي يتحرك ، فحتى تتحرك أوراق شجرة فلابد من وجود محرك لها ، مثلا هبوب الريح ، وهذا بدوره يحتاج إلى وجود منطقتين حارة وباردة حتى يتولد بينهما تيار للهواء ، وهذا يحتاج إلى وجود الشمس ، ولكن الشمس بدورها خاضعة لقانون الحركة ، فهي متحركة ، إذن فلابد من محرك لها . ولكن سلسلة المحركات هذه لا يمكن أن تستمر إلى مالا نهاية وإلا كنا داخل حلقة مفرغة . لذلك فلابد أن تنتهي سلسلة المحركات إلى محرك لا يتحرك ، ذلك لأنه لو كان هذا المحرك النهائي متحركاً لاحتاج الى محرك آخر ،

وهذا يعني أنه ليس محركاً نهائياً . هذا المحرك النهائي الذي لا يتحرك والذي هو نهاية سلسلة الحركة هو ما يعلمه الدين للإنسـانية . . هـو الله تعالى الـواجب الوجود Etre necessaire والمنزه عن الحركـة التي هي من خواص المخلوقـات والمحدثات .

ولكن واجب الوجود واحد أحد ولا يمكن أن يكون أكثر وإلا لشاهدت اختلافاً واختلالاً في الخلق وفي الأثر ، مع أن المشاهدة ترينـا أن هناك تنـاسقاً وانسجاماً تامين في قواعد الأسباب والعلل وقوانـين الحركـة التي تشكل نـظام الكون .

إن إيضاحنا المختصر هذا إنما يعتبر قطرة من بحر ، ففي علم الكلام من الأدلة والبراهين حول واجب الوجود ما يستحيـل أن يستوعبـه هذا الكتـاب الصغير ، ولكننا لم نورد هذه الإيضاحات لإثبات « واجب الوجود » ذلك لأننا نعلم استحالة إقناع المنكر والملحد وإقامة الحجة عليه ، أما المؤمن فلا حاجة له إلى دليل أو إثبات . إن عقله السليم هو أحسن برهان عنده .

لكننا اوردنا هذا الإيضاح لكي نشير إلى أن الدين لا يخاطب العاطفة فقط وإنما يخاطب العلم والعقل كذلك ، إذ ان إحدى الطرق التي يسلكها المنكرون في هذه الأيام هو زعمهم بأن الدين إنما يخاطب عواطف الجمهور وقلوبهم فقط . ففي زعم هؤلاء أن الدين إنما هو إيضاح بسيط لا يمكن أن يقف أمام التحليل والنقد العلمي ولا يمكن أن يشبع الذكاء العلمي ، وإنمـا يستميل إليـه الكتل الجماهيرية لأنه يثير مشاعرهم وعواطفهم ، وإن سر قوته هو في إخفائه للحقائق فهو « علم الجماهير » أما الطبقة المثقفة فإن دينهم اليوم هو العلم ، أما الدين فهو علم الغوغاء أو الجماهير التي تسيطر عليهم عواطفهم وأحاسيسهم .

ولكن إذا تأملنا الموضوع بتجرد وبانصاف فإننا نرى أن العلم لم يخطُ أكثر من الدين في كشف الألغاز عن سر الخلق ، وإن التفسير الذي يطلقون عليه « التفسير العلمي » ليس أكثر إقناعاً من التفسير الذي يقدمه الدين ، ذلك لأن هذه الألغاز لا تدخل ضمن حدود وسائل التدقيق العلمي ، وحتى لو قبلنا بأن التفاسير التي يقدمها الدين تستند إلى فرضية فإنه يجب القبول بأن التفاسير التي يقدمها العلم تستند إلى فرضية أخرى تحمل غموضاً وإبهاماً أكثر[٢] .

ودعنا نسلم لحظة بصحة فرضية الماديين من أن الكون عبارة عن مادة وأن كل شيء قد تحول منها وسيرجع إليها . ولكن حتى تكون هذه الفرضية حول الخلق مقنعة فأن عليها أن تجيب إجابة شافية حول هذا السؤال : من أين وكيف وجدت المادة ؟ أرجو أن لا يكون جوابكم على هذا السؤال المليء بالأسرار هو : « إن المادة وجدت من نفسها Generation Spontanee » لأن هذا الجواب ينافي طرق العلم الذي باسمه تتكلمون ، ذلك لأن طريق العلم في البرهنة والاثبات هو المشاهدة والتجربة ، فبنتيجة أية مشاهدة أو تجربة تستطيعون القول بخصوص

---

(٢) وقد اجتهد العالم المسيحي في مجال اثبات واجب الوجود ، واستطيع أن أوصي القراء الأعزاء بكتاب ممتاز حول هذا الموضوع ، وقد صدرت الطبعة الحادية عشرة له قبل ١٥ عاماً وهو كتاب « الله : وجوده وماهيته »

"Dieu — Son existence et Sa nature" لمؤلفه Prof.P.Fr.R. Garrigu — Lagrange

الطبعة الحادية عشر في ١٩٥٠ - باريس (٨٩٤ صفحة من القطع الكبير) .

وكذلك أوصي بقراءة كتاب :

« الله والانسان والكون Essai Sur Dieu, l'homme et l'univers »

Casterman, Tournai — Paris, 1951

وهو كتاب اشترك في تأليفه عدد من المفكرين ويقع في خمسمائة صفحة ونيف .

الخلق بأنه وجد من نفسه ، بل العكس هو الصحيح ، إذ إن المشاهدة والتجربة ترينا بأنه لا يمكن ان يوجد شيء من لا شيء . ومن المؤكد أن فكرة الماديين هذه أي « الوجود التلقائي » ليست أقوى من العقيدة الدينية حول آدم وحواء . لأن فكرة الماديين كذلك فرضية غير قابلة للبرهنة العلمية .

ولكني أخشى ياحضرة الملحد أن تكون هـذه المادة التي ألهتهـا هي الله الواجب الوجود الذي يخبرنا به الدين ؟ ولكن مع وجود فـارق واحد وهـو أن مادتكم ما هي إلا إله الشر والفساد ومنبع كل رذيلة ، أما الله الواجب الوجود في الدين فهو رمز الخير والفضيلة والعدالة على سطح الأرض . ولكن لاحظوا الفرق من ناحية الفرد ومن ناحية المجتمع بـين عبادة المـادة وبين عبـادة الله الواجب الوجود ، وإلى أي السبل تؤدي بهما كلتا الفكرتين .

وأرجو أن تنتبهوا إلى نقطة هامة وهي أن هذه المسائل التي تحسبـونها قد أصبحت في سجل الماضي وأن دورها في الحياة قد نفدت حالياً لم تدخل حتى الآن في طريق الحل ، إذ إن التفاسير المقدمة في هذا الخصوص كنظريات الاستحالة Transformation والتكـامـل Evolution والانتخـاب الـطبيعي Selection naturelle وفكرة المادة الأزلية Matiere eternelle ما هي إلا نظريات لم تتخلص من كونها ألغازاً حتى الآن . وبالرغم من التقدم الهائل للعلم فإن سر الخلق لا يزال سراً غامضاً ، وحتى الأمس القريب كانت الذرة تعتبر عنصراً اصلياً ونهائياً للمادة وغير قابلة للتجزئة ، أما اليوم فقد فجرت الذرة واستحصلت منها طاقة هائلة ، أي أن القناعة العلمية التي دامت منذ عهد الفيلسوف اليوناني العجوز « ديمقريط » حول كون الذرة جزءاً لا يتجزأ ظهر خطؤها أخيراً ، ولا نعلم ماذا

سيظهر غداً ، ولا أية نظريات علمية ستتهاوى ، ولكننا نعلم خطأ الذين يحسبون أن الدين سيتقهقر أو أن النظرة الدينية ستصاب بالفشل والافلاس كلما تقدم العلم وانتشر نوره بين الجماهير ، وأنما على العكس فإن كل خطوة يخطوها العلم إلى الأمام إنما تقرب الانسان المفكر إلى العقيدة الدينية وتبين عظمة الخالق بصورة أوضح . إن الانكار سهل ولكن الاثبات هو الذي يحتاج إلى جهد إن الذين لا يستطيعون التفكير والمحرومين من لذة التأمل هم الذين ينكرون بسهولة ودون تحرج . ولو استطاعت محكمة التفتيش التي حاكمت غاليلو ـ لقيامه بإثبات أن الأرض هي التي تدور وليست الشمس ـ أن تعلم مدى الخدمة التي قدمها غاليلو بهذا الاثبات لكان الأجدر بها أن تباركه وتجزيه بدلاً من اتهامه ، إذ مادامت الحوادث والوقائع تجري بإرادة الله ومشيئة ويقدر سابق إذن فما الفرق ـ بالنسبة لتلك المحكمة الجاهلة ـ إذا كانت الأرض تدور أو كانت الشمس هي التي تدور .

ولكن الذي حاكم غاليلو وغيره من العلماء لم يكن الدين وإنما كان الجهل وكلما تمزقت أستار الجهل أمام شعلة العلم المتقدم ظهرت عظمة الخالق بصورة أجلى وأوضح ، وإن كل حقيقة جديدة يهتدي إليها العلم إنما تقرب الانسان المفكر والمتأمل إلى حقيقة الحقائق أكثر فأكثر .

وقد تنبأ الفيلسوف الشاب البائس « غيو Guyau »[3] سنة ١٨٨٦ عندما كان في الثانية والثلاثين من عمره في كتابه « إلحاد المستقبل » بأن الدين سيترك

(٣) هو فيلسوف فرنسي (١٨٥٤ ـ ١٨٨٨) اشتهر بكتابيه :

L'Irreligion de l'avenir

La Morale Sans obligation ni sanction, Paris, Alcan و

مكانه كلياً للعلم . واليوم وبعد مرور كل هذه السنوات نرى أن العلم بدأ يشك في نفسه ، نعم إن دين العلماء الأفذاذ هو العلم . . . هذا هو رأيي الشخصي ، ذلك لأني أرى بأن الدين الحق والمعرفة العميقة الراقية لا يختلفان إلا في الطريق ، ولكنهما يتفقان في الدين إذ يستند كلاهما على إيمان عميق ، وأنا أعتقد أن الفرق بين متدين يؤمن بكل جوارحه بوجود القادر المطلق الذي خلق الحياة والكون وجعلهما يسيران ضمن قوانين ثابتة وضعها وقدرها وبين عالم أو فيلسوف يعتقد بـ « القدرة الطبيعية Energetisme » أو بتعبير « برجسون »[4] بـ « التكامل الخلاق Evolution creatrice » إنما هو فرق في الألفاظ والكلمات أكثر من كونه فرقاً في المعنى أو في القصد . ولكن بما أن الجميع لا يستطيعون الارتفاع عن مستوى الجماهير إلى هذا المستوى الرفيع فإن الدين سيبقى وسيعيش ، وليس هناك من شيء يستطيع ملء مكان الدين الذي هو منبع المعرفة واستاذ الخلق والتربية وأن الانسانية التي أصبحت الأزمات تحيط بها نتيجة لعبوديتها للمادة سوف تشتاق إلى الإيمان الذي أضاعته ، ولسوف تبحث عنه في يوم من الأيام .

بل هي تبحث عنه الآن ، ففي صيف ١٩٣٩ حضرت هيئة من انكلترة تنتسب إلى جمعية التسلح المعنوي التي مركزها في سويسرة ، وقد التقيت بأعضاء هذه الهيئة واستمعت إلى حديثهم القيم وإلى وجهة نظرهم في أنه لا سبيل إلى تأسيس السعادة والسلام بين الأمم إلا بالتمسك بخلق المسامحة والصفح والعدالة والرحمة والفضيلة ولو فكرنا بانصاف لرأينا بأن الاسلام لا يقول إلا بهذا .

---

(٤) برجسون : فيلسوف فرنسي مشهور (١٨٥٩ ـ ١٩٤١)
أشهر مؤلفاته : (المادة والذاكرة) و « أبحاث حول الوجدان ونتائجه »

الدين هو أول هبة للوجدان الانساني

لا شك أن الدين بطبيعة بنائه وبتشكيلاته مؤسسة اجتماعية لا يمكن فصله عن واقع المجتمع ، فابتداءً من الأقوام البدائية حتى أرقى الأمم حضارة ارتبط الناس بعقائد مختلفة ، ففي مختلف العصور والمدنيات اتجه الناس بحدسهم إلى الايمان بوجود قوة خارقة ذات إرادة وقدرة أزلية بالضرورة ، وقد تصور بعضهم هذا الموجود موجوداً واحداً وتعدد عند آخرين ، إلا أنه عرف تاماً كاملاً منزهاً متصفاً بالصفات الالهية التي نزلت بها الأديان السماوية جميعاً قبل أن يصيبها تحريف أو تبديل .

ولكن الدين لا ينحصر في هذا فهو ليس ظاهرة اجتماعية فقط ، وإنما هو ـ إذا جاز لنا أن نتكلم بلسان الفيلسوف برجسون ـ في نفس الوقت أول هبة مباشرة للضمير الانساني ، ونتيجة طبيعية لكون الانسان مخلوقاً ذا كيان معنوي ، أي كونه مخلوقاً يفكر ويؤمن . وإن إرجاع الدين إلى ظاهرة اجتماعية صرفة إنما هو نسيان أو تناسٍ لماهيته الذاتية المنشئة الفعالة ، وهذا يشبه إنكار النار من بعد رؤية الدخان .

ولكن البعض انحرف إلى هذا الطريق مع الأسف ، فقد سلك هذا الطريق علم الاجتماع الجديد الذي أرسيت قواعده في نهاية القرن التاسع عشر والذي توسع كثيراً في السنين التي سبقت الحرب العالمية الأولى وفي السنوات ما بين الحربين ، فقد وضع كبار مؤسسي هذه المدرسة أمثال « دور كهايم Emik Durkheim » و « ليفي بروي Levy Bruhi » نظرية لا تقل في نتيجتها عن المادية في سلبيتها ومخاصمتها للدين ، إذ إنها تفسر الدين تفسيراً مادياً وترى أن « الله » ما هو إلا تصور اجتماعي « Representation Sociale » وما الدين إلا العناصر

الخارجية لهذا التصور والتي تجعل منه مؤسسة قائمة . وهو - أي الدين - ليس إلا ظاهرة اجتماعية وأثر للحياة الجماعية كالعادات والموسيقى والرقص والفن ، وحسب هذه النظرة كذلك فإن « الطوطمية » أي عبادة الحيوانات هو الشكل البدائي للدين وإن الـ « آنمزم » أي العقيدة في الروح هي الأساس الصوفي له . والأديان السماوية بالرغم من اختلافها عن هذا الشكل البدائي فإن هذا الاختلاف اختلاف شكلي فقط ، أما فكرة وعقيدة الروح وخلودها والتي تشكل جوهر الدين فهي موجودة على الدوام(٥) .

وأنا شخصياً من أنصار النظرية الاجتماعية لـ « دركهايم » ، وقد كان معظم أساتذة الفلسفة في جامعة « سوربون » التي درست فيها من رواد هذه المدرسة ، وقد استفدت كثيراً من كتب وأبحاث ومحاضرات هؤلاء الأساتذة . ولكنني مع هذا مقتنع بوجود نواقص كثيرة وأخطاء كثيرة في النظرية الاجتماعية لدوركهايم ، وتفسيرها للدين تعتبر إحدى هذه الاخطاء . إن دوركهايم كان مادياً متبرقعاً وكانت نظرته الاجتماعية نظرة مادية صرفة(٦) . لأن المجتمع يأخذ في هذه النظرية دور الإله ، وله دور كدور المادة وقوتها في نظر الماديين ، وكدور العوامل الاقتصادية في نظر الماديين التاريخيين ، لأنها تفسر الحياة بأجمعها بواقع المجتمع أما الفرد وقيمة الفرد فيضيع ويعتبر صفراً .

---

(٥) أوصى القراء الذين يرغبون في الاطلاع بشكل واسع على هذه النظريات بقراءة : Les Formes ele mentaires de la vie religieuse Durkheim, Alcan, 1925 — Quest — ce que la sociologie, Bougle, Paris. Alcan — la Res Ponsabilite, Fauconnet, Paris, Alcan

(٦) أوصى الذين يرغبون في الاطلاع على نقد النظرية الاجتماعية لدوركهايم في موضوع الدين والأخلاق قراءة هذا الكتاب القيم :

Conflit de la morale et de la veligion, Parsimon Deploige. Paris, Lib. National

انظر إلى صفحة (٤٧) من : Reflexions Sur la conduite de la vie, Lib. Plon, Paris.

ولكن يجب ألا ننسى بأن المجتمع يتكون من الأفراد ، وهؤلاء الأفراد لهم نفوس وضمائر وأحاسيس وشعور بالمسؤولية ، ونظرة هذه المدرسة لابد أن تكون ناقصة لأنها تعتبر الوجود الفردي والقيمة الفردية أمراً ثانوياً .

الدين مظهر لحاجة ضرورية ولرغبة عميقة :

إن الدين ـ كما قلنا آنفا ـ ليس حادثة اجتماعية فقط ، فهو يستمد جذوره من نفس الفرد لكونه إنساناً يضحك ويبكي ويأمل في السعادة ، ويحمل بين جنباته قلباً ، فالدين يشبع حاجة ضرورية وملحة في نفس الانسان ، هذه الحاجة التي تولدت من قدرته ـ نتيجة لشعوره ولذكائه ـ على حدس عظمة هذه اللانهاية من جهة وشعوره من جهة أخرى بضيق لعجزه وعدم كفاية قوته وقدرته ، ولكن نفس ابن آدم ستحس دائماً بهذا الضيق والأسى فهو يشعر بالعجز والقصور في كل مرحلة من مراحل تقدمه ، وسيبقى الدين يعيش في قلب الانسان ملبياً حاجة نفسية عميقة .

ذلك لأن الانسان ـ سواء أكان جاهلاً أم عالماً ـ يتساءل دائماً من أين أتى وإلى أين هو ذاهب ، ويبحث عن سند معنوي وعن نقطة انطلاق وحركة من عالم فوق البشر ، ولكنه لا يجد الجواب الشافي حول هذه الأسئلة لا في العلم ولا في الفلسفة . والنتيجة إنه إما أن يهب قلبه لحقائق الدين فيكون متديناً ويعيش كانسان ، وإما أن يجعل غايته إشباع حاجاته العضوية والركض وراء لذاته فيكون أشبه بالحيوان . وهذا الطريق يؤدي بالانسانية في النهاية إلى الهاوية . والظاهر أن الانسان الحديث بدأ يسلك هذا الطريق مع الأسف . إن هذا الانسان الذي يظن بانه سجل تقدماً هائلاً في ميدان الرقي لم يعرف في الحقيقة من أوجه الحياة

المختلفة وحقائقها إلا وجهاً واحداً وهو وجه المادة ، ولم يقطف من ثمار العلم المختلفة سوى الفاكهة المحرمة ، ولم يستطع أن يهضم هذه الفاكهة لأنها كانت فجة وغير ناضجة ، إن الذين وجهوا كل ذكائهم منذ عصر النهضة إلى المادة لم يفكروا بأن علوم الحياة التي هي أهم من علوم المادة بقيت نتيجة الاهمال متأخرة بالنسبة إلى علوم الطبيعة والمادة التي تقدمت بصورة مذهلة ، وإن عدم التناسب هذا هو الذي أدى إلى ضلال الانسان . . . هذا الانسأن الذي أله المادة ليعبدها من أجل رغباته الجسدية ، وضحى بالسعادة من أجل الرفاه ، والاطمئنان من أجل الراحة ، لقد كشف قوانين العالم المادي وعرف أشكال وأوصاف هذا العالم ، ولكنه نسي نفسه ، والنتيجة أنه أصبح كما قال المفكر الكبير « الكس كاريل » غريباً في دنيا المكائن التي صنعها بنفسه ، وعاجزاً عن إجابة طلباته الضرورية .

العلم ولغز الخلق :

لقد بقي العلم وسيبقى حائراً أمام لغز الخلق ، فالانسان مهما تقدم في المعرفة فإنه يجهل ماذا سيكون بعد لحظة واحدة ، لذلك فإن الشيء المعقول بالنسبة إلى الانسان ليس هو الإنكار والتمرد وإنما هو التسليم وهذا هو السبيل الذي بينه الإسلام .

حتى لا أكون عبداً لشهواتي ولعبة لأوهامي فعلي أن أفكر في أنني لم أكن بالأمس موجوداً ولكني الآن موجود ، انتبهت إلى الوجود كما يستيقظ النائم ، كبرت ، بكيت وضحكت ، أحببت ، فرحت ، قرأت وتعلمت .

إن تفسير هذا اللغز العجيب المسمى بالحياة بترك حقيقة وجود الله جانباً

واعتبارها أثراً من آثار الطبيعة وامتداداً للمادة الصماء الجامدة هو كتفسير العالي بالسافل والحي بالجامد والقيمة بالصفر . . . أليس هذا التفسير تفسير غير علمي بالضرورة ؟

ثم إنني سأفنى غداً تاركاً أحبائي ورائي ، سأكون تراباً وسأطوى في طي النسيان عاجلاً أم آجلاً . إنني أخاف كلما فكرت في هـذا وأخشى من هاويـة العدم ، لم أحس ولم أر هذه الهاوية في أول الأمر وكنت أحسب أنني خالد ، ولكن هيهات ! فإن قدراتي الجسمية والفكرية التي نمت ثم أخذت ـ بمضي السنين ـ تسير في طريق الضعف بدأت تشعرني باقترابي من هاوية الفناء . مهما حاولت ومهما تشبثت بالحياة فإن قوة خفية لا تقاوم تدفعني إلى هذه الهاوية التي أخشاها دفعاً ، وأسمع صوتاً خفيا يذيب جوانب نفسي يقول : كلا . . . لن تقف أمام طريق الحياة ولن تسد السبيل أمام الأجيال القادمة بل ستمضي وستموت ، لأن موت كل فانٍ قانون عام ، أين أمك الحبيبة ؟ أين والدك ؟ الذي كنت تقبل يده باحترام ؟ لقد سار كل منهم في طريق الحياة حتى نهايتها ، بكوا ، وضحكوا ، أحبوا وسعدوا . . . ثم ماتوا أخيراً ، ولكن هل فنوا ؟ أنا أعلم بأن كيانهم الجسدي تحول إلى تراب ولكن أين كيانهم الروحي ، وماذا حدث له ؟ هل يفنى الكيان الروحي في هذا الكون الذي لا تفنى فيه ذرة واحدة ولا تنعدم ؟

إن حادثة ترك هذه الحياة ووداعها نقطة استفهام كبير . . . استفهام أكبر من حادثة المجيء إلى الحياة ، كما إنها أكثر مدعاة للتفكير وللرهبة كذلك . ومادام سر هذا الأمر باقيا ، ومادام ما وراء الحياة لغزاً مخيفاً فإن البشرية ستبقى دائماً بحاجة ماسة إلى الدين وإلى القيم المعنوية ، أما هذا اللغز فسيبقى مستعصياً على الحل وسيبقى التعريف العقلي والتعريف العلمي الذي يحاول أن يعطيه الانسان

إلى أسرار المجيء إلى الحياة وأسرار ترك الحياة تعريفاً سطحياً لا يشبع ولا يغني من جوع .

الدين ولغز الحياة :

إن الدين لا يحل لغز الحياة بتعريفها وإنما بملء قلب الإنسان بنور الإيمان وبالأمل فيما بعد هذه الحياة الدنيا ، أليس هذا هو الذي يحتاج إليه ؟ إن غاية العلم هي تنوير نفوسنا بالمعرفة ، فإذا كانت هذه النفوس متنورة فإن الغاية تكون قد تحققت سواءً أكانت بالعلم أم بواسطة الايمان .

إذا فكرنا مليا نجد أن الذي يرعب الانسان ليس هو الموت وإنما هو العدم (neant) فإننا لا نخشى الموت وإنما نخشى أن نضيع إلى الأبد في طي العدم . إذن فالقضية هي إحلال الأمل في نفوسنا في حياة أخرى بعد هذه الحياة محل الخوف من العدم وكذلك بعث الرغبة في نفوسنا لنكون جديرين بتلك الحياة والدين هو الذي يؤمّن لنا هذا . بهذا الأمل وبهذه الرغبة تكون الحياة بالنسبة إلى المتدين حياة خالدة وجديرة بتحمل آلامها وأتعابها ، وعبارة عن طريق للخير وللفضيلة الانسانية وموصلة للسعادة الأبدية .

وإذا تأملنا ملياً نرى أن هذا الأمل وهذه الرغبة لا يقتصر أثر فائدتها - كمصدرين للصحة والقوة - على الفرد فقط وإنما يكونان شرطين لازمين لاستقرار المجتمع وأمنه ، فقد أرتنا تجارب عدة عصور أن العلاقات في المجتمعات التي كان أفرادها يحملون الرغبة بأن يكونوا جديرين لتلك الحياة السرمدية كانت تتسم بالاستقامة وبالصدق ، ذلك لأن هذه الرغبة تقرب الفرد إلى أساس قوي من التربية الانسانية ومن الخلق الانساني ، وتكون النتيجة أن الأمن والسلام يسودان

المجتمع .

ولكنني أرجو أن لا تذكروا لي الجرائم التي حدثت في العهود الماضية والتي قد تحدث الآن كذلك باسم الدين ، والدماء التي أهرقت والحيل الـدنيئة التي وقعت باسم الدين ، ذلك لأنني أعرف بأن أبرياء كثيرين أزهقت أرواحهم أمام محراب الدين ، وإن التاريخ الانساني قد لطخ بالدين القاني* . . . نعم لقد كان هناك من رجال الدين المحتالين والمتعصبين الجهال والعديمي الحياء الذين احتالوا على كثير من الأبرياء ودبروا الحوادث الدامية . ولكن الذين يحملون الدين هذه الانحرافات والمساوىء ينسون فطرة الإنسان وجانبه الحيواني والأناني . إن توقعنا يكون خاطئا إن توقعنا من الدين أن يكون مانعاً لهذه الانحرافات ويكون كتوقع شفاء المحتضر على يد الطبيب الساهر عليه . إن مسؤولية هذه الشرور لا تقع على الدين بل على الطبيعة الأنانية للإنسان إن غاية الدين الاجتماعية هي طرد شيطان الأنانية من نفس الانسان وتطهيرها وتزيينها بالصفات الإلهية الرفيعة والسمو بهذه النفس إلى أعلى ، نعم إن الانسانية هي من الغايات الاساسية في الدين ، إذ هي المعنى البشري له فالناس جميعاً في نظر الدين عباد الله سبحانه وتعالى وأخوة فيما بينهم .

إن الملحد له حياة محدودة ودنيا ضيقة ، أما المؤمن فهو في ظل توكل وقور ينتظر الحياة الأبدية التي يؤمن بها بسكون نفس واطمئنان بال .

دعوا كل فرد يضيء نور قلبه بنفسه :

مادمنا نسائل أنفسنا من أين أتينا وإلى أين نحن ذاهبون ، ومادمنا نفكر

* يصدق هذا على التاريخ الاوروبي اكثر مما يصدق على التاريخ الاسلامي ـ المترجم .

كثيراً في مصيرنا بعد الموت ، ومادمنا لا نجد جوابا يشفي الغلة لا في العلم ولا في منطق العقل ، إذن دعوا كل فرد يبحث عن النور الذي يضيء قلبه وان يسعد في التدين الذي يهب الأمل ويخفف من غلواء الشهوات ، ومادمنا لا نستطيع أن نؤمن لكل فرد الكيان والمكانة التي يصبو إليها ولا نستطيع أن نؤمن لكل فرد الثروة والرفاهة التي يرغبها ، ذلك لأنه بينما لا يحد رغبات وشهوات بني آدم أي شيء نجد أن نِعَم كرتنا الأرضية التي تعتبر جرماً صغيراً في هذا الكون الرحب محدودة ومادام البعض يعيش على الكعك والعسل بينما يضطر البعض الآخر في هذه الحياة الفانية ان يتسول من أجل رمق العيش . . . مادام البعض ينوء تحت ثقل ثروته بينما لا يجد الآخر دواءً لمريضه ، إذن دعوا الذين يرون دواء حزنهم في التوكل وأمل قلوبهم في القناعة ، والسعادة في الارتباط بالأمل في الحياة الأخرى حتى يسكن سعير الرغبات التي تغلي في النفوس والتي لا تعرف الارتواء والشبع حتى لا يسلكوا طريق الانتقام والدم عند الفقر ولا طريق الحقد والحسد عند ضيق اليد ، وإلا فإن العاقبة التي تنتظر الانسانيةستكون فاجعة. إن الانسان الذي لا يؤمن يتشبث بهذه الحياة الدنيا تشبثاً قوياً نتيجة يأسه من الحياة الأخرى ، ويرغب ان يسكر على مائدة ملذات الحياة حتى آخر قطرة منها ، ويكون من السهل عليه أن يقع عبداً تحت إرادة وإدارة إله المادة والشهوة . أما اسم هذه الصنم الملعون الذي هو مصدر الظلم والشرور والسفالة في المجتمع فهو « الشيطان » ، أما الايمان بالله وحب الله فهو القوة الوحيدة القادرة على تخليص الانسان وحمايته من يد هـذا الشرير .

إن الصفات الإنسانية النبيلة كالفضيلة والتضحية والصفح تنمحي عند الانسان الذي يعبد آلهة من المادة والشهوة وتظهر بدلها ذهنية عدم مبالاة وعدم اكتراث ومثل هذه الذهنية كارثة بالنسبة إلى المجتمع .

قوة الأخلاق الدينية وأهميتها بالنسبة للحياة الاجتماعية :

يقول الماديون إنه مادام الله حصيلة وهم ، ومادام الدين من اختراع بعض الطفيليين ، إذن فليست لهما أية فائدة أو دور إيجابي في المجتمع ، لذلك فإن من الممكن أن نقلع هذا الوهم من نفوسنا وأن نعيش بلا دين مثلما يعيش كثير من الناس في الوقت الحاضر دون أن يحسوا بأي نقص لكونهم بلا دين .

إنني أقر أن الانسان كما يستطيع أن يعيش بلا علم وبلا أخلاق فإنه يستطيع كذلك أن يعيش بلا دين ، فالحيوانات تعيش في الواقع بلا دين . ولكن كما أنه لا يمكننا أن نخرج بنتيجة أن العلم والأخلاق غير ضروريان للحياة وللمجتمع . فكذلك لا يمكننا استنتاج نفس الشيء بالنسبة إلى الدين . ثم إن هناك عدة أنواع من المعيشة في هذه الحياة الدنيا ، فالانسان يعيش حتى ولو كان حاسر الرأس حافي القدمين ، إن المقياس الانساني للحياة ليس في عدد السنين التي قضاها الانسان ولا في مقدار الثروة أو القدرة المادية ، وإنما هو في كيفية معيشته ، وطريق الإيمان هو الطريق الوحيد للوصول إلى الاطمئنان النفسي والسعادة القلبية والمتانة المعنوية التي يتمتع بها المؤمن . إن الانسان لا يستطيع أن يجد الاطمئنان الذي يعطيه الدين في أية وسيلة أخرى ، فمنذ مئة وخمسين عاماً حاول كثير من العلماء الوضعيين ـ أي الذين لا يؤمنون بشيء لا يرونه أو لا يحسونه ـ أن يجدوا نظاماً للمجتمع ونظاماً للأخلاق غير العقائد الدينية ، ولكنهم أخفقوا . أن محور هذا النظام الذي يبحثون عنه هو أن لا يكون الخير والشر مستندين على فكرة الجزاء والعقاب أي أن على الانسان أن يفعل الخير لكونه خيراً وأن يبتعد عن الشر لكونه شراً ، فقد اعتبر هؤلاء فكرة الدين الأخلاقية فكرة نفعية « Edoniste » ومساومة رخيصة في سبيل الحصول على الجنة ، فالشخص المتدين ـ كما يرون ـ لا يعدل ولا

يفعل الخير لأنه يحب هذه الفضائل وإنما للحصول على مكافأة في الحياة الاخرى التي يؤمن بوجودها ، وهو لا يبتعد عن الشرور الا من أجل تخليص نفسه من العقاب في تلك الحياة . فالخير والعدالة في الدين ليسا فضيلة لذاتها وانما هما « نقود » و « ذهب » لشراء المكافأة . إن « الاعتراف » في المسيحية و « الشفاعة » في الاسلام والتي هي غاية العبادات والتوسلات تستند على الأمل في المكافأة والخوف من العقاب .

إن هذا الادعاء في حق الدين ليس كذباً ، ولكن تصويره بشكل مساومة رخيصة خطأ بل هو افتراء .

إن فكرة المكافأة والعقاب موجودة في الدين ، وما الجنة والجحيم إلا لشكل المجسد لهذه الفكرة والمعبرة عنها ، ذلك لأن الدين إنما هو للناس ، والاحساس بالمكافأة والجزاء موجود في فطرة ابن آدم ، وليس من المستطاع قلع هذه الأحاسيس من قلب الانسان ، فقد خلقت يد القدرة الانسان بهذه الصفات ، فهو يحب السعادة ويهرب من الألم بطبيعته ، فالمكافأة هي جواب لناحية حبه للسعادة ، والعقاب جواب لناحية ميله للهرب من الألم .

هذا مع العلم أن الطبقة الممتازة من المتدينين لا تفكر بجزاء أو عقاب عندما تقوم بالواجبات الدينية . إن الخير والعدالة في نظر المتدين المتسامي من أوامر الله وأن تحقيقها هو وظيفة العبد تجاه خالقه ، أما الشرور والظلم فهي التصرفات التي منعتها أوامر الله والابتعاد عنها هي أيضاً وظيفة العبد تجاه الخالق ، إن المتدين ذو المستوى العالي يكون زاهداً ومتقياً ، أي إن أعماله جميعاً تكون « لوجه الله » لا ينتظر مكافأة على صلاته أو صومه وصدقاته ولا تخطر هذه على باله .

ولكن لا يمكن أن نتوقع من الجميع أن يكونوا بهذه الدرجة من الـزهد والتقوى ، لذلك فإن فكرة الجزاء والعقاب تكون ضرورية لعامة الجماهير التي تشكل أكثرية طبقة المتدينين لوجود هذه الفكرة في فطرة الانسان الذي يميل إلى المكافأة ويهرب من العقاب ،(وما عقيدة الجنة والجحيم في الدين إلا إشباع لهذه الفطرة في بني آدم).

إن فكرة الجزاء والثواب تحتل أولى المراتب في القوى المعنوية التي توجه وتدير أفعال الانسان لذلك نرى « بنتام Bentham » و « ستيورات مل Stuqrt Mill » وهمـا من أشهر الفـلاسفـة الانجليـز يـرسيـان أسس فلسفـة « المنفعـة Utilitarisme » على هذه الفكـرة ، إذ نرى أن « الفـائدة » و « الضـرر » التي تقابلان المكافأة والعقاب في رأي هؤلاء هما منبع الطاقة الانسـانية فأفعال الانسان جميعها تنبع من فكرة الفائـدة إذ يبحث الانسان دائـماً عن الفائـدة ويهرب من الضرر ، حتى إن حب الآباء والأمهات للأطفال الذي يخيل بأنه أكثر العواطف تجرداً من الغايات والمصالح وأصفاها يستند في الأصل على شعور الآباء والأمهات ـ ولو بشكل انسياقي ـ بامتداد حياتهم عن طريق هؤلاء الأطفال أي إنه يستند في آخر الأمر على فكرة الفائدة .

إن فكرة النفعية التي يـدافع عنهـا هؤلاء الفلاسفـة هي فكرة المسـاومة الرخيصة لأنها نفعية دنيوية ، أما نفعية المتدين فهي أمل يتعلق بما بعـد الموت لذلك فهي نفعية علوية ، إن المتدين الحقيقي لا ينتظر الجزاء على أفعاله الخيرة في هذه الدنيا ، وهذا هو الذي يكسب المتدين صفة التضحية والفداء .

ولكن دعنا نتسائل : هل وجد هؤلاء الوضعيون ما يبحثون عنه ؟ وهل استطاعوا أن يضعوا نظامـاً علمانيـاً للأخـلاق غير مستنـد على فكـرة الثواب

والعقاب ؟ أليس النظام العلماني للأخلاق الذي يزعمونه نظام قائم على إرضاء الشهوات Sensualisme ؟ إن الأخلاق الدينية ببعثها الأمل في المكافأة والخوف من العقاب في الحياة الأخرى في قلب الانسان تقيد شيطان الشهوات والرغبات الجامحة التي هي منبع كل الشرور .

كان الفيلسوف الشاب Guyau ـ الذي سبق ذكره ـ يتصور بأن المستقبل لا يكون لا دينيا فقط وإنما ستكون الأخلاق فيه بلا روادع وأن تصرفات الناس ستكون من أجل الخير والعدالة فقط دون أن ينتظروا جزاءً أو يخافوا عقاباً ، لقد نسي هذا الفيلسوف الشاب بأن الانسان مخلوق يأكل اللحم ويلعق الدم ، ولو أنه قام من قبره ـ الذي رقد فيه شابا ـ ورأى أحوال الانسان الذي أمل أن ينقلب إلى ملاك ، والفظائع التي ارتكبت في الحرب العالمية الأولى والثانية لحزن على مصير الانسان الذي كلما زادت معرفته ازداد توحشا .

وقد وقع Gustare Belo في نفس الخطأ عندما سار في طريق مشابه ، فقد بحث هذا المفكر عن الخير والجمال والعدالة في واقع المجتمع وأرجع الإخلاق إلى المجتمع فقط ـ كالنظرة الاجتماعية لدوركهايم ـ وكان كمن يرى سراباً ويظنه ماءً .

وفي الحقيقة إنه حتى يومنا الحاضر لا يوجد أي أساس فلسفي ـ غير الدين ـ يستطيع أن يوصل الانسان إلى القوة الخلقية والنفسية والمعنوية التي يتمتع بها المتدين الصحيح التدين ، ولو وجد في المستقبل أساس أخلاقي له قدرة وتأثير كقدرة وتأثير الدين فإنه سيكون بلا شك ديناً ولكن تحت ثوب آخر .

والخلاصة : إن الدين هو أقوى سند معنوي للفرد وهو مصدر الخير والفضيلة والمتدين يكون سعيداً في جميع الأوجه فهو كريم وذو قلب عامر ،

وعندما يفارق هذه الحياة لا يتحسر عليها لأنه يعلم بأن السعادة الحقيقية هي بعد هذه الحياة ، وما الموت إلا تغيير للمكان وانتقال من عالم « الفناء » إلى عالم « البقاء » ، لذلك فإن الايمان والتعلق الحقيقي به يكون بحد ذاته منبعاً لا يجف للسعادة والانشراح بالنسبة إلى الفرد ، فحب الله تعالى والخوف منه يخلق عند الانسان إرادة قوية وخلقاً متيناً والذي يحمل بين جنباته الإيمان بالله يكون مثالاً للشخص المستقيم المضحي والمحب للخير . ويخطىء الذين يرون أن الأخلاق الدينية ليست إلا مساومة ، فالعبادة في الدين ليست للحصول على المكافأة والذهاب إلى الجنة ، وإنما هي إداء لوظيفة العبودية والشكر لله ولاستحصال رضاه ، وما المكافأة إلا إحسان إلهي للذي أدى وظيفة الشكر هذه . نعم إن عمل الخير واجتناب الشر مرتبط في نظر العوام بالحصول على المكافأة والبعد عن العقاب . ولكن المكافأة والعقاب في نظر المؤمن الزاهد ليست سببا لأفعاله وتصرفاته وليست باعثة لها ، وإنما هي نتيجة لها ، لأنه يرى أن العبودية لله والتقرب إليه بهذه الوسيلة إنما هي وظيفة وواجب . هذا المؤمن يفعل الخير لأنه يحب ربه ويبتعد عن الشر لأنه يخاف أن يفقد هذه المحبة ، وهذا هو السر في قوة الأخلاق الدينية وضرورتها للحياة وللمجتمع وفي كونها لا تعوض . وعلى هذا الأساس يتلقّى ضمير الانسان الحب والخوف من مصدر واحد إذ يشعر الانسان أنه تحت مراقبة القدرة الالهية في جميع حركاته وسكناته .

◉ وهذا الشعور هو الأساس في التربية الدينية ، وهذه التربية المستندة إلى حب الله تكون قوية إلى درجة إن الطغاة والمستبدين وكذلك السياسيين النفعيين لا يأنسون إلى المتدينين ولا يحبونهم ، ويشعرون بضيق إذا كانوا معهم . ذلك لأن المتدين لا ينحني لأحد ولا يهز رأسه بالموافقة عند كل إشارة ، بينما لا يرغب هؤلاء المستبدون والطغاة والسياسيون الأشرار أن يروا من حولهم ـ كما قال أميل ـ من لا

ينحني لهم ، فهم يحتاجون إلى من ينحني أمامهم ويسبح بحمدهم ويتمسح بهم كالكلاب ويكون عبداً خاضعاً بين أيديهم ، أما إذا احتاج هؤلاء المستبدون إلى رجال الدين لتمشية مصالحهم ولخدمة أهدافهم السياسية ومنافعهم فإنك تراهم يبحثون عن كل كذاب ومنافق وجبان يلبس الجبة والعمامة .

الفصل الثالث

وجود أزمة دينية حادة في تركيا اليوم

ذكرت سابقاً التقرير الذي قدمته إلى محكمة الصحافة في استانبول والشخص الذي جاء ذكره في هذا التقرير (صاحب المقالة) كان طالباً ذكياً في الصف النهائي لكلية الطب . وقد قابلته شخصياً فرأيت أنه مخلص في أفكاره السلبية حول الدين ، وكما ذكرت في التقرير فإنني أرى عدم ملاحقة مثل هؤلاء الشبان ، بل يجب توعيتهم وإفهامهم الأخطاء التي يقعون فيها ، ولكن هذا يحتاج إلى علماء دين ذوي كفاءات عالية ، وتركيا فقيرة جداً مع الأسف في هذه الناحية ، فالكتب الدينية وعلماء الدين الذين يستطيعون توعية وإشباع حاجة شبابنا الذين يتعطشون إلى معرفة الحقائق نادرون جداً ، إن لم نقل إنهم معدومون . ويوجد اليوم آلاف من الجامعيين ومئات الآلاف من الأفراد المسلمين الذين يبحثون عن بصيص من النور في ضباب كثيف من الشك في موضوع الدين والعلم . وينتظرون في ظلام التردد والمجهول نوراً للهداية . . . ولكن هيهات . . . ففي كل مكان هناك فراغ مخيف .

والخلاصة إن تركيا اليوم تشكو من قلة علماء الدين ، وكنتيجة موازية لهذه فهي تعيش في أزمة دينية حادة . وهناك فئات تزيد من حدة هذه الأزمة عن علم أو دون علم ، لذلك فإن الأزمة تزداد كل يوم قوة وحدة ، حتى أن تركيا أصبحت اليوم كبيت خشبي سرى النار واللهب في جميع أنحائه ، وهذا ليس ادعاءً أو مبالغة بل هي حقيقة ظاهرة لجميع الأعين .

ولن أحاول هنا البرهنة على هذه الأزمة ولن أتعرض للأسباب التي ولدتها أو للنتائج القريبة والبعيدة التي ستتمخض عنها ، ولكني سأكتفي بالقول بأنه إن استمرت هذه الأزمة في طريقها وإن لم تصرف الجهود لأزالتها فإن أية قـوة لن تستطيع الحيلولة دون وقوع تركيا في قبضة الشيوعية . وإنني أسوق ادعائي هذا وأتركه للتاريخ .

* * *

لنكن صريحين : إن هناك كثيراً من الأفراد في هذا البلد ـ شباناً وشيوخاً ـ لا يؤمنون بفكرة وجود الخالق الذي أوجد هذا الكون من العدم ولا يؤمنون بفكرة الآخرة ، وباختصار لا يؤمنون بأية عقيدة دينية ، ذلك لأن مثل هذه العقائد لا يمكن البرهنة عليها بالطرق العلمية ، وتدرس في المدارس عـلى أن مثل هـذه العقائد لا يمكن فحصها أو النظر إليها بعقلية علمية ، بل على أساس أنها أمور أشبه بالخيال .

لماذا ننكر الواقع ولمـاذا لا نتصارح : أليست هـذه هي النظرة الـرسمية الحكومية ؟ وأليست هذه هي نظرة المدرسة والجـامعة ؟ نعم إن كـل شخص يستطيع أن يعتقد ما يريد وليس هناك اعتراض على هذا ولكن إما أن تكون هذه النظرة صحيحة ، عند ذلك يكون من العبث الكلام عن الدين وعن المعنويات ، أو أن تكون هذه النظرة خاطئة ، أي إن الدين حق وصدق ، عند ذلك يجب أن تخرج القناعة الرسمية من إطار هذه النظرة الخاطئة ، أي إن من الضروري أن ينجلي الموقف وأن تكون هناك نهاية لهذا اللف والدوران ، لذلك يجب أن يُبرهن على خطأ هذه النظرية وعلى عدم مطابقتهـا للعقلية العلميـة الحقيقية ، وهـذا الواجب يقع على عاتق علماء الدين القديرين ، ولكن أين مثل هؤلاء العلماء ؟ إن

سياسة الضغط والإرهاب وسياسة الشدة التي اتبعت طيلة سنين طويلة لم تدع هناك مجالاً لظهور علماء ممتازين أو ظهور كتب وآثار دينية راقية في هذه البلد ، لذلك نرى ظلام الجهل الكثيف يخيم على أفكار الجمهور في ناحية المواضيع الدينية .

وكما قلت مراراً أكرر هنا بأن كاتب هذه السطور ليس عالماً دينياً ، ولكنه شخص اتخذ موقفاً خاصاً من الصراع بين العلم والدين وهو يريد أن يعرض رأيه في هذا الخصوص على أنظار المسلمين المخلصين وأن يبسطه على بساط البحث والنقد .

ماذا يجب أن يكون موقف الدين من العلم الذي يتوسع كل يوم ؟

لا يستطيع أحد أن ينكر بأن العلم في زماننا لم يعد كما كان سابقاً يحصر بحثه على الأشياء وعلى الحوادث فقط ، بل أصبح في موقف إدعاء الحاكمية على الأدمغة وإلى درجة ما على الأرواح كذلك . ولهذا السبب بدأ صراع عنيف بين العلم والدين والمعتقدات الدينية ، هذه حقيقة واقعة .

وتتولد في هذه الحقيقة الواقعية مسألة في غاية الأهمية وهي : ماذا على الدين أن يفعل ، أو في أي موقف يقف أمام العلم الذي يوسع كل يوم ساحته ويخطو نحو السيطرة حتى على عقل وعلى روح الانسان ؟

أجل إنني أعلم بأن العالم الحقيقي وكذلك المتدين الحقيقي يرى أن هذا السؤال في غير محله ، وكلاهما محقان في هذا ، ذلك لأن المتدين الحقيقي يرى في الدين طريقاً إلهيا وإن على الانسان الذي يرغب في السلامة أن يتوجه إلى هذا الطريق بكل عقله وروحه وجوارحه . أما العالم الحقيقي فهو يرى أن العلم ذرة

صغيرة بالنسبة إلى ما نجهل في هذا الكون اللانهائي ، لذلك فإن ما يُذكر من الصراع بين العلم والدين ليس صراعاً ظاهرياً وليس حقيقياً .

ولكن مهما يكن ، ومهما كان الصراع ظاهرياً فإن علينا أن نسأل ذلك السؤال وأنْ نحاول الإجابة عليه لنزيل هذا الصراع ولنزيل جميع الشكوك أي إن علينا أن نقرر ونعين الموقف الذي على الدين ـ وخاصة الدين الاسلامي ـ أن يقفه امام العلم .

الأجوبة المقترحة على هذا السؤال :

هناك جواب يقدمه الكثيرون وعلى رأسهم أحد رجال الدين البروتستانت[1] على هذا السؤال حول موقف الدين من العلم المتسع كل يوم ، وخلاصة هذا الجواب أو الاقتراح هي :

يجب أن يحذر الدين ويتجنب بشكل قاطع من الدخول إلى صراع مع العلم أو اتخاذ موقف معارض له ، وعليه الرضوخ للمفاهيم العلمية وعدم الشعور بالوحشة أو النفور منها ، بل على العكس من ذلك عليه أن يلائم نفسه معه مع المحافظة على عقائده وأركانه .

أصحاب هذه النظرة يرون أن الدين لا يستطيع أن يدعي اليوم ـ كما كان سابقاً ـ السيطرة العامة المطلقة على الانسان وعلى المجتمع فهو مضطر إلى مقاسمة العلم هذه السيطرة ، ومن الناحية الأخرى لا يستطيع الدين الانسحاب إلى قوقعته ومزاولة نوع من حياة الانزواء والعزلة ، أولا : لأن الانسان والمجتمع

---

(١) انظر الى Louis Auguste Sabatier (1839 — 1901)

يحتاجون اليوم إلى الدين وإلى جوه المعنوي أكثر من أي دور مضى ، ثانيا : إن الدين إذا انزوى وانسحب إلى حياة العزلة قد يعيش لفترة ما في القلوب ولكن يكون مصيره الموت كمصير نبات منع عنه الهواء والماء . لذلك فإن الدين يحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الاندماج في الحياة الاجتماعية وعدم الانعزال عنها .

إن جوهر القضية هو في تحقيق هذا الامر : كيف نستطيع أن ننقذ الدين من العزلة وأن نؤسس السلام في نفس الوقت بينه وبين الحقائق العلمية الحديثة لنجعل هذين النظامين يسيران معاً جنباً إلى جنب ؟

يقولون بأنه لتحقيق هذا ، هناك أمران لابد من إنجازهما أولهما : هو القيام بتخليص الدين وتنقيته من أسر الخرافات والقشور والحشو ومن الأمور التي ليست منه ، وثانيا : إقامته على أسسه وعناصره الحقيقية ، أي إرجاعه إلى صفاء ونقاوة دوره الأول .

لا يختلف أحد في وجوب تنقية الدين من الأساطير والخرافات والقشور وفي وجوب أقامته على أسسه الأصلية الحقيقية ، ولكن ما هي الأشياء أو المسائل التي تبدو أنها من الدين ولكنها ليست كذلك في حقيقة الأمر ؟

يقولون بأن هذه المسائل هي مسألة العلم والفلسفة ثم مسألة السلطات البشرية .

فقبل كل شيء فإن المسائل الفلسفية والمعطيات العلمية ليستا من الدين ذلك لأن الدين ليس علماً أو فلسفة ولا تاريخاً أو جغرافية ، وهو لا يحتوي على أفكار أو على معارف وعلوم مادية من قريب أو من بعيد ، إذ إنه عالم للروح

وللمعاني ، ويجب أن لا تحتل المسائل العلمية مكاناً في الدين . ذلك لأن وظيفة الدين ليست إشباع حاجة المعرفة لدى الانسان ، بل إشباع حاجة الانسان إلى الإيمان وإلى الارتباط بمثل عليا . صحيح إنه عند ظهور الإديان الكبيرة اضطر الدين إلى إجابة حاجة الانسان إلى المعرفة ، لذلك احتوى الدين على كثير من المواضيع الفلسفية والمعلومات التاريخية والجغرافية والفلكية ولكن جميع هذه العلوم انفصلت الآن عن الدين وارتبطت بقواعد وأسس معينة وهي الآن تشكل اصولا مختلفة .

ثم يضيف هؤلاء قائلين بأن خلط الدين مع العلم والفلسفة ومحاولة تفسير المسائل العلمية والفلسفية بواسطة نصوص الكتب المقدسة أوقع الدين في متناقضات كثيرة أمام العقل الانساني وأمام العلم المتقدم بمضي العهود والأجيال . وإذا كانت الأديان الكبيرة اليوم في وضع حرج أمام رقي العلم ـ وهذا شيء واقع ـ فإن سبب ذلك يرجع إلى تخطي ساحتها الأصلية ومحاولتها الولوج في مسائل فلسفية وعلمية .

ويجب أن يكون واضحاً بأن الدين والعلم ساحتان مختلفتان ونتاجان لقابليتين مختلفتين ، فالعلم يشبع حاجة العقل للمعرفة والدين يشبع حاجة للروح الإيمان وبالتالي الوصول إلى الطمأنينة والسلام عن هذا الطريق . لذلك فليس هناك من شيء ينتظره العلم من الدين أو ينتظره الدين من العلم ذلك لأن ساحة الدين خارجة عن هذا العالم المادي المحسوس الذي يدخل ضمن موضوع العلم وبحثه . والدين يستمد مبرر نشوئه من العجز الذي يحسه الانسان دائماً في نفسه وفي شعوره بالنقص وبالألم والضيق . هذا الشعور الذي يتولد من توجس الانسان وخوفه من تغلب طينته الحيوانية على طينته الانسانية ، أي من تغلب

ناحيته السفلية على ناحيته العلوية ، وهكذا وبدافع من شعور الخوف هذا يتمسك الانسان بالمعنويات الدينية التي تضفي عليه سكينة وراحة نفسية ، حيث يصل إلى الطمأنينة والخلاص .

ثم يقولون بأننا إذا تأملنا جيداً نرى أن الدين لا يصل إلى هذه الغاية ولا يحققها عن طريق إعطائنا معارف علمية جديدة او بتوسيعها المعارف العلمية الموجودة لدينا ، وإنما عن طريق توجيه شخصيتنا نحو جوانبها الانسانية السامية ودفعها إلى أعلى ، وبتعبير آخر فإن الدين ما هو إلا ابتهالات وتضرعات أنفسنا ضد الالم والضيق والخوف والعجز الذي يلازمنا دائماً وفي جميع الأحوال من ساعة مولدنا حتى ساعة وفاتنا . والدين لا يصل إلى هذه الابتهالات والتضرعات عن طريق العلم والفلسفة ، بل عن طريق الإرادة والقلب ، والشخص المتدين يرى في قوانين الطبيعة وقوانين التطور التي يقدمها العلم باسم القوانين الحقيقية (الثابتة) او بشكل فرضيات علمية . . . يرى أنها عبارة عن مظهر للإرادة الأزلية للخالق .

والخلاصة إن أصحاب هذا الرأي يرون أن الشخص لكي يكون متديناً ولكي يعيش حياة دينية فإنه محتاج إلى ثلاثة أمور :

أولا : أن يحس بأنه تحت مراقبة وفي حضور الله . ثانياً : أن يقوم بدور العبد تجاه الخالق وذلك بعبادته والتضرع إليه . ثالثا : عدم قطع الأمل من مغفرة ومن رحمة الله .

لا شك أن هذه الأمور الثلاثة خارجة عن حدود العلم وبعيدة عن سيطرته ، ومهما تقدم العلم ومهما ارتقى العقل فإن ابن آدم لا يستطيع أن يتخلص من حاجاته الثلاث هذه ، ولا يستطيع العلم والعقل أن يسدا هذه

الحاجات . ولكن المؤمن - كما يقولون - لا يحتاج لاشباع هذه الحاجات إلا إلى الإيمان بالله ، فهو لا يحتاج في هذا الخصوص إلى نص أو نقل ولا يحتاج إلى سلطات بشرية كالأنبياء والأولياء أو أية وسائط أخرى تدخل بين الله وبين العبد .

هذه النظرة التي يقبلها ويدافع عنها اليوم كثير من المعنيين بالمسائل الدينية لاقت رواجاً كبيراً خاصة بين أنصاف المثقفين ، لذلك نحتاج إلى مزيد من شرح هذه النظرة كي لا يبقى هناك غموض أو إبهام في هذا الموضوع .

الباطنية « سوبجكتفزم » في الدين :

يرى كثير من مدعي الثقافة - المقلدين لهذا التيار في الغرب - في الدين موضوعاً حسياً وشعورياً بحتاً ، وهم يعزلونه عن « النص » و « النقل » بل حتى عن « الوحي »[٢] ويضعون هذه الأمور في موضع ثانوي بل حتى إنهم يريدون اخراجها تماماً من الدين ، فالدين في نظرهم شيء مختلف عن النص والنقل ، فهو عالم للأحاسيس وعالم للحياة الروحية .

تدعى هذه النظرة إلى الدين بـ « الباطنية » « سوبجكتفزم » وتمتد جذورها في أوروبا إلى حركات التجديد[٣] ، والحقيقة إن أول من فتح الطريق إلى

(٢) تأتي هنا كلمة « النص » بمعنى العبارات والمتون المحتوية على أركان وأسس العقائد الدينية . أما « النقل » فيأتي هنا بمعنى « السنّة » أو « الحديث Tradition » أي مجموع ما نقل عن رسول دين معين من كلام أو تصرفات . أما الوحي فيقصد منه الحقائق المبلغة من قبل الله إلى رسول دين معين .

(٣) حركات التجديد : هي التيارات السياسية والدينية التي ظهرت في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر . وقد كان الأسقف الألماني « مارتن لوثر » على رأس هذه التيارات التي أخذت مظهر التحدي ضد البابوية التي كانت تمثل الكاثوليكية .

« الباطنية » هو مؤسسة البروتستانتية الألمانية مارتن لـوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٦١) وبعد أن قويت هذه النظرة في القرن الثامن عشر على يـد الانسكلوبيديـين[٤] تمخضت في النصف التالي من القرن الماضي عن « المذهب المسيحي الجديد » ومن أشهر شخصيات هذا المذهب الجديد الأديب والروائي الروسي المشهور « تولوستوي » « ١٨٢٨ ـ ١٩١٠ » . فهذا المفكر يقول : إن الشيء الوحيد الذي يمنعني من الارتياح إلى المسيحية وقبولها هو النصوص والروايات المنقولة عن المسيح ، ولولاها لكنت قد قبلت المسيحية واطمأننت إليها من زمان . . » . ولكن تولستوي بقوله هذا كان كمن يطلب ثمرة بلا شجرة .

كما هو معلوم من قبل المتتبعين فإن هذه الباطنية الدينية ترتبط في الأصل بالباطنية الفلسفية التي كان الفيلسوف الالماني « فيختة ١٧٦٢ ـ ١٨١٤ » من أكبر المدافعين عنها ، فقد قال هذا الفيلسوف بالباطنية المطلقة في ساحة الفلسفة ، فهو يرى بأنه لا يوجد شيء غير الـ « أنا » أو أي شيء خارج الـ « أنا » ، وكل شيء خارج « أنا » ما هو إلا مظهر وانعكاس خارجي لكياني أي لـ « أنا » . والدليل على هذا هو أنني عندما أفنى وأموت لا يبقى هناك « أنا » ولا أي شيء آخر ، لذلك فإن أي شيء موجود بالنسبة لي لا يقوم إلا بي ولا يوجد كائن قائم بذاته خارج وجودي[٥] .

---

(٤) الانسكلوبيديون : هم جماعة من المفكرين الفرنسيين في القرن الثامن عشر الذين حرروا وألفوا قاموساً كبيراً يبحث عن الفلسفة والدين والفن والأدب « دائرة معارف » . وقد كان على رأس هؤلاء الأديب والمفكر الفرنسي فولتير وديتروت ودالمبرت الذين كانوا في مقدمة المحاربين للدين . انظر صفحة ٤ الحاشية رقم ٢ و ٣ .

(٥) انظر إلى

A.Fouillee, Histoire de la philosophie pa. 437. ed. 18

لذلك فإن الذين انحرفوا إلى الباطنية الدينية يستفيدون من هذه الأفكار لفيخته ، أو بالأصح ينقلون هذه الدعوى إلى ساحة الدين ، وهم يقولون : إن الدين هو إحساس عميق لدى الانسان ، وهذا الاحساس يولد لدى الانسان الذي يقاسي الشعور بالعجز وبعدم الكفاية وبالحاجة إلى الاستناد على سند قوي ، ثم إن نفس هذا الاحساس يسمو بالانسان إلى مثل سامية وإلى عالم فوق عالم البشر ، إلى عالم لا نهائي خالد ، وإن هذه المحاولة التي هي ضمن هذه الحاجة النفسية للسمو إلى هذه المثل هي التي توجد لنا الله (حاشا لله).

ثم يستطردون قائلين : إذن فإن فكرة الله تأتي من مثلنا نحن ومن حاجتنا نحن ، ومعنى هذا أن الله لا يخلقنا وإنما نحن الذين نخلق الله (حاشا لله) . إن حاجتنا لملء فراغ أنفسنا بفكرة سامية وبأمل مشرق هي التي توجد لنا الله ، لذلك فلا يحتاج الانسان لكي يكون متديناً ولكي يجد هذه الحقيقة إلى أنبياء أو أولياء ولا إلى « نص » أو « نقل » ، يكفي في هذا الخصوص إحساس سليم(٦) ، ذلك لأن الدين حياة عميقة من الأحاسيس والمشاعر(٧) .

---

(٦) إن كاتب هذه الأسطر متأكد تماماً من صحة ومن قوة دعواه ، لذلك فلا يرى باسا من عرض وجهات النظر المعارضة لوجهة نظره كما يفهمها ويراها أصحاب هذه الآراء .

(٧) إن الباطنية التي نبحثها الآن كانت قد أصبحت « موضة » في القرن التاسع عشر وقد كان الشاعر الفرنسي الرقيق موسات وكذلك لامارتين من أنصار هذه النظرة . وأنا أعتبر الأبيات التالية من شعر لامارتين نموذجاً رائعاً للباطنية :

Que tes temples Seigneur, Sont etroits pour mon a'me!
Tombez, murs impuissants, tombez.
Laissez-moi voir ce ciel que vous me derobez
Architecte divin, tes domes Sont de flamme!
Que tes temples, Seigneur, Sont etroits pour mon a me!
Tombez murs impuissants tombez

الباطنية الدينية علامة على التردّي المعنوي :

ان هذه النظرة التي انتشرت في أوروبا في أواخر القرن الماضي كوباء بين المثقفين وكمرض عقلي سارٍ كانت أثراً من آثار هذه المدينة العرجاء التي تقدمت من الناحية المادية وتأخرت من الناحية المعنوية فكانت علامة من علامات هبوطها وترديها .

هذه النظرة كانت عبارة في الحقيقة عن عذر للتخلص وللانطلاق من النظام الروحي والتربية المعنوية التي تأمر بها الأديان السماوية كالإسلام والمسيحية .

كانت هذه النظرة نذير الخطر بقدوم عصر تسيطر عليه النفعية « سانسوأليزم » التي تعتبر الحياة أكلاً وشرباً ولهواً ، والتي تجر العالم إلى الكوارث والفواجع . ولم يكن الكثير من الفلاسفة والمفكرين والشعراء في بداية القرن العشرين يدرون بأنهم بدفاعهم عن هذه النظرة أنما يرسلون بطاقات الدعوة لحربين عالميتين جرّتا الوبال والمآسي والفواجع على العالم الإنساني .

كم هو ضيق معبدك يا آلهي بالنسبة لروحي
انهدمي أيتها الجدران المتضعضعة . . انهدمي
اتركني أرى السماء التي أخفيتها عن عيني
المعمار الإلهي ، إن قبيك من اللهب .
كم هو ضيق معبدك يا آلهي بالنسبة لروحي .
انهدمي أيتها الجدران المتضعضعة . . انهدمي
اتركني أرى السماء التي أخفيتها عن عيني .

نقد الباطنية الدينية :

إذن فإن الدين بالنسبة للباطنية الدينية ما هو إلا الإيمان ، أي الحياة والعالم النفسي الداخلي ، وبما أن الروح غير الجسم ، والمعني غير الحرف وغير الكلمة ، والفكر غير التعبير ، بما أن هذه أشياء مختلفة إذن فالدين لا يعني النص والنقل ، إذ يمكننا أن نعتبر النص والنقل ظرفاً والدين مظروفاً .

إذا تأملنا هذه النظرة ـ أو هذا الاقتراح ـ التي تبدو عند أول وهلة شيئاً جذاباً وقادراً على حل المعضلات وتذليل الصعاب نرى أنها ليست إلا ركاماً من السفسطة ، ذلك لأن عزل الدين وفصله عن النص والنقل والنظر إليه على أنه شيء قلبي صرف لا يعني في الحقيقة سوى إنكار للدين واقتلاع للفكرة الدينية من القلوب .

لا يمكن أن يكون هناك دين بلا نص أو نقل ، قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة إلى اتجاه فلسفي أو قناعة فلسفية ، ولكن هناك فروق كبيرة لا يمكن إزالتها أو تجاهلها بين الدين وبين أي نظام أو اتجاه فلسفي .

أولا : إن أي اتجاه فلسفي عبارة عن نظام للمعرفة حصل عليها العقل بعد بذل جهد كبير ، لذلك فإن الاتجاه الفلسفي لشخص معين قد يهتز او يتغير بواسطة نظام فلسفي آخر يتوصل إليه العقل ، بينما ارتباط المتدين الحقيقي بعقيدته الدينية ـ باستثناء مرض الردة ـ يلازمه حتى الموت . إن الدين بالنسبة لمتدين الحقيقي هي الحقيقة بعينها .

ثانياً : إن أي نظام أو اتجاه فلسفي لا يستطيع أن يوجد نظاماً للمجتمع ُنه لا يستطيع أن يعين علاقات قوية دائمة أو طرازاً خاصاً للسلوك الانساني ،

وأكبر شاهد على هذا هو أنه لم يستطع تحقيق هذا حتى الآن ، لأن الاتجاهات والنظم الفلسفية من نتاج العقل الانساني ، لذلك فإنه محكوم عليها أن تبقى ضمن حدود العقل الانساني ، بينما يحتاج الانسان إلى إطاعة مثل ـ بعاطفة حب أو خوف نابعة من القلب ـ تتجاوز قابلية إدراك العقل الانساني . . إلى شيء فوق البشر ، ذلك لأن الانسان ناقص وقاصر وعاجز ، والدين يلبي اشتياق الانسان إلى شيء خارق وإلى مثل سامية ، ولأن الدين نظام للحقائق الآتية من عالم علوي لا نهائي يتجاوز العقل الانساني ويتجاوز العالم المادي المحسوس . صحيح ان هناك نواحي وأحكاماً في الدين لا تخاطب العقل ولا يمكن إدراكها بواسطة العقل ، ولكن أركانه وأصوله نتاج لشيء خارق ، وبكلمة واحدة فإن الدين هو الوحي .

إن الوحي ليس كأي نظام أو اتجاه فلسفي قاصر على خطاب العقل وحده ، بل هو يخاطب المشاعر ويخاطب الإرادة كذلك . الدين يخاطب ويؤثر على الملكات الإنسانية الرئيسة الثلاث وهي التعقل والحس والإرادة . وهذا هو السبب في كون قوة الدين في إدارة وتوجيه الانسان والمجتمعات بدرجة لا يمكن مقارنتها مع أي نظام أو دعوة فلسفية ، وهذا هو السبب كذلك في عدم استطاعة أي نظام فلسفي في النجاح كالأديان من ناحية البقاء ومن ناحية جذب الانصار والأتباع ، وكما ذكرنا سابقاً فإن الفيلسوف الفرنسي المشهور « اغوست كومت » كان قد بشر بمذهب دعاه بـ « دين الانسانية » ، ولكن أتباع نبي الشهوة والمادة هذا لم يتجاوزوا بضع مئات من الأفراد ولم يعمر مذهبه إلا بضعة أعوام ، وفي مقابل هذا يُرجى تأمل الدين الإسلامي الذي يقدسه مئات الملايين من الأفراد طيلة أربعة عشر قرناً .

كلا . . فكما أن الدين ليس عبارة عن إيمان فقط ، كما أنه ليس عبارة عن

إدراك المعقول كذلك[٨] . صحيح إن العقل يلهمنا بوجود الخالق ولكنه لا يستطيع أن يجد لنا الطريق للتقرب إليه ونيل رضاه ، لأنه ـ ككل ملكة وقابلية إنسانية ـ محدود وضعيف وعاجز ، فهو يستطيع إدراك المادة والأشياء التي يمكن إرجاعها للمادة فحسب .

ومع إن العقل البشري يحدس ـ بشكل غامض ـ بالعالم اللا متناهي الموجود وراء هذا العالم المادي المحسوس إلا أنه لا يستطيع إدراكه أو النفوذ إليه والإحاطة به . إن « النص » و« النقل » أو باختصار « الوحي » هو الذي يخبرنا عن هذا العالم . والأنبياء يرشدوننا ـ عن طريق الوحي ـ إلى الطريق الموصل الى رضاء الله والدين يعني الطريق الذي يرشد إليه النبي عن طريق الوحي .

أقول إن الدين ليس روحاً ومعنى فقط ، بل هو عمل في نفس الوقت ، أي هو طراز معيّن للسلوك وطريق معيّن للسير في الحياة ، وهذا الطريق يفتحه ويرشد

---

(٨) صحيح إن الفكر ليس عبارة عن التعبير ، والمعنى ليس عبارة عن الكلمة ولكن ليس هناك فكر بلا تعبير أو معنى بلا عبارة ، فهذا وهم وخيال ، وكما يحتاج الفكر لكي يكون فكراً إلى التعبير ، ويحتاج المعنى لكي يكون معنى إلى الكلمة ، فكذلك يحتاج الدين لكي يكون دينا إلى النص والنقل .

صحيح إن الإيمان بالله هو أكبر ركن في الدين ، والمؤمن يختلف عن الملحد قبل كل شيء في هذه النقطة ، ولكن يشترط أن يكون الإيمان كما عرفه الدين ، فإذا لم يكن كذلك وكان مثلا إيمانا بوجود قوة مجردة فوق الطبيعة ، أو كان كإيمان أتباع وحدة الوجود الذين يدمجون الله بالموجودات وبالكون وبالأشياء . . فهذا ليس بإيمان .

إن أتباع وحدة الوجود « pantheisme » يؤمنون كذلك بوجود قوة خارقة ، ولكنهم لا يعتبرونها قوة متصفة بصفات ذاتية مختلفة عن الأشياء وعن الطبيعة ، وإنما يرون أنها قوة مكنوزة وموجودة في الأشياء وفي الطبيعة وهي هي نفسها .

(إنظر إلى : « اضمحلال المذهب المادي » لمؤلفه المرحوم الأستاذ اسماعيل فهمي .

إليه الوحي ، والنور الذي يضيء هذا الطريق ودليله هو « النص » و « النقل » أو بكلمة واحدة هو النبي .

لا يمكن أن يكون هناك نبي بلا وحي ، ولا يمكن أن يكون هناك دين بلا نص أو نقل ، وأقول هنا وأكرر بأن الانسان يستطيع أن يتوصل بعقله إلى الله ولكنه لا يستطيع أن يتوصل إلى الدين ، أي إلى الطريق الموصل إلى الله . هذا الطريق يرشد إليه النبي ، إما إخراج النبي والنبوة من الدين فيعني الارتباط والاهتمام وتقدير العقل فقط ، وهذا يعني الارتباط بشيء محدود فانٍ والدفاع عن الشهوانية ، وبناء على ذلك فإن الانسان لا يحتاج فقط إلى النبي بل يحتاج إلى المرشد وإلى الولي كذلك ، ذلك لأن الولي يأتي بعد النبي في الارشاد والهداية ، لأن الولي شخص تقرب إلى الله بزهده وتقواه . إن أفلاطون الذي يعتبر أكبر عبقري في تاريخ الفكر الانساني استطاع بعقله وبعلمه المحير للعقول التوصل إلى الله ، بل إنه برهن على وجوده وعلى وحدانيته بأدلة لا تبلى ومع ذلك لم يستطع أفلاطون تأسيس دين ولم يستطع أن يكون نبياً حتى ولا شخصاً متديناً ، لم يكن ينقص أفلاطون في هذا الخصوص عقل أو علم ولكن كان ينقصه « الوحي » لكي يكون نبياً ، وكانت تنقصه « الهداية » ـ أي الدخول إلى الطريق الموصل إلى الله ـ لكي يكون متديناً .

وفي مقابل هذا تأملوا شخصية الرسول محمد (ﷺ) : لقد كان هذا النبي الكريم أميا لم يأخذ دروساً من اساتذة فانين ولم يتعلم منهم ولكن كان له أستاذ هو أستاذ الأساتذة ، لقد كان الله سبحانه وتعالى ـ عن طريق الوحي ـ هو معلمه ، ولذلك لم يكن علم الرسول محمد (ﷺ) علماً محدوداً أو مرتبطاً بمشاهدات وتجارب العقل ويسبح في عوالم لا تستطيع العقول البشرية إدراكها . والنتيجة هي أنه في مقابل أشخاص معدودين يعرفون أفلاطون وينتسبون إليه ، نرى أن

الرسول الكريم يعيش في قلوب مئات الملايين من الأفراد ، وهذا يأتي من الفرق بين العقل والوحي من ناحية التأثير على الأفراد .

والخلاصة إن فصل الدين عن النص والنقل هو محاولة لقلع الدين من جذوره ، فإذا قيل لنا : لنطهر النص والنقل من الخرافات ولنرجع الدين إلى صفائه الأول ، فإنني أقول بإن هذه دعوة مقبولة . أما إذا قيل لنا لنفصل الدين عن النص والنقل ولنجعله أمراً قلبيا صرفاً فجوابي على هذا : كلا ! أبداً .

ليس من الصحيح فصل الدين عن النص والنقل فضلا عن فصله عن العلم والفلسفة :

إنني أعتقد ـ وهذا رأيي الشخصي ـ بأنه ليس من الصحيح فصل الدين لا من النص والنقل فقط بل حتى من العلم والفلسفة كذلك ، ذلك لأن النتيجة تكون قبول واعتبار الدين أمراً قلبياً وعالما للحياة النفسية الداخلية مع أن الدين ـ مثله كمثل العلم ـ للحياة وليس متاعاً للأديرة أو الصوامع أو للتكايا والزوايا المنعزلة . إن فصل الدين من العلم ومن الفلسفة يعني قطع علاقته مع هذه الحياة الدائبة الحركة والحكم عليه بالموت .

ثم إن فصل الدين من العلم والفلسفة معناه الخشية من العلم والهروب منه ، مع أن الدين يجب أن لا يبتعد ولا يهرب من العلم بل عليه أن يقترب منه وأن يتزين ويثرى به . ثم إلى أين يمكن الهرب اليوم ؟ كان من الممكن في القرن الماضي اعتبار أن للدين وللعلم ساحتين ومجالين مختلفين كلياً ، وكان يحسبُ أنه من الممكن أن يعيش الدين في مكان أمين لا تمتد إليه يد العلم ولكن هذا الاحتمال زال على ما يظهر في هذه الأيام ، ومع أنه لا يمكن الادعاء بعدم وجود

مجالات لا تمتد إليها يد الغلم إلا أن هذه المجالات قد تقلصت وضاقت كثيرا .

كانت الظواهر الوجدانية والحالات الشعورية من الأمور الغامضة التي لا يمكن كشف أسرارها ، ولم يكن العلم يتجرأ أن يمد يده لها سابقا . وكان بإمكان الدين على الأقل إن يتخلص من العلم وأن يلوذ بقلعة الغوامض هذه ويحتمي بها . ذلك لأن العلم كان حتى إلى سنوات قريبة يسير في أثر الظواهر المادية ويحاول استخراج قوانيها ، وكان الدين لاختصاصه بالعالم المعنوي يستطيع التخلص من العلم الذي كان موضوعه المادة فحسب بالهروب منه ، أما الآن فلم يبق هناك مجال لهذا ، لأن العلم قد فتح أبواب قلعة الغـوامض هذه ودخـل إلى أعماق الانسان ، هذه الأعماق التي كانت مخزناً للأسرار .

لقد أصبحت الظواهر الوجدانية « Etats de conscience » أو الحالات الشعورية كبعض قابليا تنا أمثال الحس والتعقل والتفكير والتأثر من مواضيع علم النفس ومن مجالات فحصه وتدقيقه حتى لأصغر تفاصيلها .

لذلك فليس في استطاعة الدين اليوم التخلص من العلم بهروبه منه إذ سوف لن يجد مكانا ليلجأ إليه ، لهذا يجب على الدين أن لا يهرب بل عليه أن يقف وأن ينتصب في مكانه وأن يوفق بين معطياته ومعطيات العلم وأن يؤسس السـلام بينهما وإن يجتهـد في كشف النواحي الضعيفـة في العلم وكشف عـدم كفايته . والخلاصة إن عليه أن يثبت ويعين حـدود العلم ، أي حدود العقـل والذكاء الانساني ، وسوف لن يستطيع الدين أن يتماسك أمام العلم في القرن العشرين إلا بالاستناد على هذه الشروط وعلى هذه الأسس .

النص والنقل شيئان اساسيان في الدين :

ليس الدين أمراً وجدانيا وقلبياً فقط ، فهو في نفس الوقت نظام للفرد وللمجتمع ، وهذا النظام يؤسسه النص والنقل الذي يخبر به الوحي ، لذلك فإن النص الذي يستند على الوحي ، والنقل الذي يوضح هذا النص شيئان أساسيان في الدين ، فإذا أخرجت النص والنقل من الدين فإنه لا يبقى هناك سوى حدس مشوب بالشك والغموض وسوى إحساس عار . . . وهذا ليس بدين .

وكما لا يمكن إخراج النص والنقل من الدين ، فكذلك لا يمكن إخراج المسائل الفلسفية والعلمية من الدين .

نعم إن القرآن الكريم ـ بشكل خاص ـ الذي هو كتاب الإسلام المقدس ـ وكذلك الكتب المقدسة للأديان ـ ليس قاموساً للفلسفة ولا كتابا للتاريخ أو للجغرافية . . هذا صحيح ، ولكن هذا الكلام الإلهي ليس كذلك عبارة عن مناجاة وأدعية ، نعم إن فيها مناجاة وأدعية ، ولكن القرآن الكريم ـ كما قلنا سابقا ـ أسس نظاماً كاملاً للحياة الفردية والاجتماعية بكل نواحيها القانونية والخلقية والسياسية ، وأعطى نظرات عميقة لها مساس بالفلسفة وبالعلم ، وقد ارتبط الملايين من الأفراد بهذا النظام طيلة عدة عصور ولا يزالون مرتبطين به .

عدم اعتبار النص والنقل من الدين إنكار للدين :

إذن فإن عدم اعتبار النص من الدين يعني عدم اعتبار هذا النظام وهذه المقررات من القرآن ، وهذا معناه إنكار صريح لهذا الكتاب الإلهي وإنكار للدين

الذي أسسه ، لذلك فنحن مضطرون إلى اعتبار الدين والنص والنقل شيئاً واحداً .

ولكن قد يعترض معترض في هذه الحالة قائلا : « إننا سنواجه إذن ما كنا نخشاه ونتجنبه ، إذ نكون قد جعلنا الدين في تضاد مع العلم وكذلك في تضاد مع سير وضرورات الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، لأن من الضروري الاعتراف بإن بعض الأحكام والأسس التي تؤلف نظام الدين غير قابلة للتطبيق الفعلي في هذه الأيام ، وإن بعض أحكام الكتب المقدسة التي تمس العلم والفلسفة لا تتفق مع النظرة العلمية والفلسفية المعاصرة والحقيقة إن جميع المضاعب تنشأ من هنا ، وما الصراع الموجود حاليا بين الدين والعلم إلا نتيجة لهذا الوضع ، وما فصل النص والنقل من الدين إلا لأجل إنقاذ الدين من الوقوع في تضاد مع ضرورات وحاجات العصر ولإنقاذه من الهزيمة المفجعة أمام العلم . إن سلامة الدين وتأمين مستقبله لا تتحقق إلا عند عدم وقوعه في صراع مع العلم وفي تضاد مع ضرورات وحاجات العصر ، إذ أن عليه أن يتعايش سلمياً مع هذه الحاجات والضرورات فإن لم يتعايش معها وإذا ما دخل في صراع معها فان هزيمته لا شك فيها . لذلك نكرر ما قلناه بأن الطريق الوحيد لتجنب هذا الصراع هو في إجراء تصفية أساسية في الدين وعدم اعتبار النصوص التي تتعارض مع المفاهيم العصرية من الدين » .

وكما قلت سابقا فإن من الحق أن نعترف بإن هذا الموضوع يشكل اليوم محور قضية العلم والدين ، والدين والحياة ، وإن حل مشاكل هذا الموضوع سيحقق سلامة الدين وضمان وتقوية مستقبله ، أما السكوت عن هذه القضية وتركها معلقة هكذا ـ كما هي العادة في هذا الخصوص ـ فلا يؤدي إلا إلى مضاعفة

المشاكل والى انزواء الدين بشكل تدريجي تقبلاً للهزيمة ، ولذلك فإن أهم واجب يقع على عاتق علماء الدين اليوم هو الإجابة على هذه القضية التي لخصناها أعلاه وتصفية المشاكل المثارة منها . وأنا أعترف بإنني لست مؤهلا من الناحية العلمية ، ولست قادرا على القيام بهذه المهمة ، ولكن هناك صورة حل تراودني منذ مدة أرغب في عرضها على الأنظار الناقدة للقراء . فإذا كنت أقع دون أن أدري ودون أن أتعمد في خطأ فإنني أرجو العفو والمعذرة .

الفصل الرابع

يجب أن يكون مفهوماً ومعلوماً لدينا منذ البداية بأن معظم الذين يهاجمون العلم والحياة باسم الدين ، أو الذين يهاجمون الدين والمعنويات باسم العلم هم الذين لا يملكون معلومات كافية وصحيحة لا حول الدين ولا حول العلم . لذلك فنحن نبدأ الموضوع بسؤال : ما هو الدين ؟ أو ما هو الإسلام بشكل خاص ؟ ونحاول أن نلخص الجواب على قدر الإمكان على هذا السؤال :

إن الإسلام ليس على الاطلاق عبارة عن إيمان وعقيدة وجدانية فقط فهو في نفس الوقت عمل وعلم وفلسفة . أي هو حركة وفعل ونظام للعلاقات الاجتماعية . ولإظهار هذه الحقيقة يعرف الإسلام بأنه الدين الذي يجمع ويكفل سعادة الدنيا والآخرة[1] ، وقبل الولوج إلى الصدر أحب أن أشير إلى نقاط ثلاث :

١ ــ إن الدين الإسلامي يستند على العلم وعلى العقل ، فقد أعطى الإسلام العلم أهمية كبيرة ورفع مقام أهل العلم وجعل لهم مرتبة عالية[2] ، وليس في

---

(١) هل الإيمان والإسلام شيء واحد أم هما شيئان مختلفان ؟ ما العلاقة بين الإيمان والعمل ؟ ما هي قيمة وحكم الإيمان بدون عمل ؟ اختلف علماء الاسلام حول هذه المسائل ، وقد جرت مناقشات طويلة بين أهل السنة وبين المعتزلة ، وأنا أوصي الذين يريدون زيادة معلوماتهم حول هذا الموضوع مراجعة الجزء الإول من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) هناك آيات وأحاديث كثيرة تشوق وترغب في العلم وهي معلومة لدى المتتبعين لذلك لا نرى حاجة لذكرها هنا ، ويستطيع كل من يرغب مراجعة الجزء الإول من كتاب إحياء علوم الدين فصل « فضل العلم » .

الإسلام حكم واحد يعارض العلم أو يناقض العقل الباحث عن الحقيقة ؛ وعلى نقيض غموض وإبهام المسيحية فإن جميع جوانب الإسلام واضحة وبسيطة وغير معقدة ، ويستطيع كل شخص سواء أكان عالماً أو جاهلاً ـ أن يجد في الإسلام ما يبحث عنه ويشبع روحه .

٢ ـ يجوز أن تقع المسيحية في موقف حرج أمام العلم ، وهي قد وقعت فعلاً لأن الإنجيل ـ وهو الكتاب المقدس للمسيحية ـ مستند على الروايات ولم يدون إلا بعد مدة طويلة بعد المسيح (عليه السلام) ، لذلك فقد امتلأ الانجيل ـ وكذلك التوراة ـ بكثير من الخرافات والأوهام ، وهذا هو السبب الذي أدى ببعض العلماء المسيحيين اللاهوتيين إلى تبني دعوة عدم اعتبار النصوص من الدين وإلى إخراجها منه ، أما في الإسلام فلا مجال أبداً لهذه الدعوة ذلك لأن نصوص الإسلام ـ أي القرآن ـ هو الإسلام بعينه .

إن القرآن الكريم هو أصح الكتب المقدسة الموجودة على سطح الأرض وأتمها فهو مستند على الوحي وعلى والتبليغ وليس على الروايات ، وعلى الرغم من مرور أربعة عشر قرناً لم يحصل هناك أي تردد حول أية كلمة من أية آية ولم يشك في صحة جملة من جمله .

وكما هو معلوم فإن القرآن الكريم تنزّل آية آية ، وكان الرسول (ص) يحفّظ أصحابه الآيات عند نزولها . كما أن القرآن كان يدون من قبل « كتاب الوحي » وكان معظم الصحابة حفاظاً للقرآن ـ وكان الخليفة الثالث عثمان (رضي) من مشاهير الحفاظ لذلك فلا يمكن أن تكون هناك دعوة بعدم اعتبار النصوص من الدين في الإسلام فقرآن الإسلام ليس ـ كإنجيل المسيحية ـ مستنداً على الروايات ، بل على التبليغ أي على الوحي .

٣ ـ إن معظم الذين يهاجمون الدين عندنا باسم العلم هواة وأنصاف مثقفين لا يملكون معرفة حقيقية وصحيحة لا بالعلم ولا بالدين . لذلك نـرى قبل البدء في الإجابة على سؤال ما هو الاسلام وما هي علاقته بالعلم ، أن نذكر باختصار الملامح التي سبق وأن رسمناها من قبل .

أسس الإسلام وعلاقتها بالعلم :

إذا تأملنا القرآن الكريم من أولهِ إلى آخره بشكل منطقي وبطريقة تحليلية دقيقة نرى إن هذا الكلام الإلهي يحتوي على ثـلاث مجموعـات رئيسية هي : « الاوامر ، النواهي ، ثم الوصايـا » فالمجمـوعة الأولى هي الأحكـام المتعلقة بالعقيدة (الأحكام العقيدية) ، والمجموعة الثانية تحتوي على الأحكام المتعلقة بالعمل وبـالحركـة وبالعـلاقات ، أي هي (الأحكـام العملية والخلقيـة) أما المجموعة الثالثة فهي الأحكـام المتعلقة بـالعلم والتاريـخ والفلسفة ، أي هي (الأسرار الفلسفية والعلمية والأخبار التاريخية)* .

ولأجل تعيين علاقة هذه المجموعات الثلاث مـع العقل والعلم تـوجد قاعدتان مهمتان لدى أهل السنة أولاهما :

(إذا تعارض العقل مع النقل يرجح العقل ويؤول النقل)**

---

* نعتقد بأن المؤلف قد سها في هذه المسألة ، فإن الأوامر قد تشمل الأحكام العملية الشرعية كذلك [وأتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً] (سورة النساء ـ الآية ٢) . و[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين] (سورة البقرة ـ الآية ٧٨) كما أن النواهي قد تشمل الإمور العقائدية أيضاً [واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا] (سورة النساء ـ ٣٦) (المترجم)

** المقصود بالعقل هنا هو العقل القاطع والنقل هنا هو النقل الظني القابل للتأويـل . وقد استقرأ العلماء هذه المسألة فلم يجدوا قاطعاً عقلياً يتعارض مع قاطع نقلي . (المترجم)

وبدون أن نخل بالمعنى نستطيع أنْ نعبر هكذا عن هذه القاعدة :

(إذا لوحظ أن هناك تناقض بين العلم وبين الدين يسلك مسلك العلم ويؤول الدين إذا كان ممكناً أي يوفق مع العلم)

أما القاعدة الأخرى فهي : (لا اجتهاد مع النص)

أي أنه إذا كان هناك نص واضح صريح فلا يمكن سلوك طريق التأويل أو الأجتهاد وإنما يتبع النص .

إن هاتين القاعدتين كافيتان لحل جميع مشاكل قضيتنا ولتوضيح السلام الموجود بين العلم وبين الإسلام .

لنبدأ بالمجموعة الأولى من القرآن الكريم ، أي من الأحكام العقائدية :

العقائد الأساسية للإسلام في مواجهة العلم :

إن هذه الأحكام ـ كما هو معلوم ـ مجتمعة في
(آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)

إن الفرائض التي تشكل الأركان الرئيسية للإسلام مجتمعة هنا وهي الإيمان القلبي الخالص بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، ثم إظهار هذا الإيمان القلبي والتعبير عنه قولاً .

ما هي قيمة هذه الأحكام أمام العلم ؟

جوابنا على هذا السؤال هو أنه لا يمكن أن يكون هناك سؤال كهذا ، فإن الحقائق الواردة في (آمنت . .) لا يمكن إدراكها بالعلم والعقل ، وليس هناك من تعارض بينها وبين العلم ، وذلك لأنه لأجل وجود التعارض لابد أن توجد هناك منافسة ، وحتى تكون هناك منافسة لابد أن يلتقي المتنافسان في مجال واحد ، بينما حقائق (آمنت . . .) لا تلتقي مع العلم ولا توجد معه في مجال واحد حتى يكون هناك تعارض ما : أن مجال العلم ينحصر في العالم المادي المحسوس وفي معقولات هذا العالم ومدركاته ، بينما تتجاوز مبادىء (آمنت . . . .) هذا العالم ، ولا يستطيع العلم إدراك ، أو النفوذ إلى هذا العالم حتى يكون هناك أي التقاء . ولهذا السبب لا يمكن البرهنة العقلية والعلمية بصورة مباشرة على وجود الله ووجود الآخرة . . . لا يمكن البرهنة ولا يمكن الإنكار كذلك . صحيح إن كثيرا من العلماء والفلاسفة منذ أفلاطون اجتهدوا في إثبات وجود الله ووضعوا ادلة عديدة في هذا الخصوص ، ولكن لم يستطع أي دليل من هذه الأدلة إن يفحم وأن يسكت المفكرين المعاندين ، لا يستطيع هذا لأن إثبات الله ليس إثباتاً مباشراً « Direct » بل هو إثبات منطقي غير مباشر (Indirect) ينتقل من الأثر إلى المؤثر ومن السبب إلى النتيجة ومن المصنوع إلى الصانع وهذا (استدلال) والاستدلال قد يقنع المفكر المنصف الباحث عن الحقيقة ولكنه لا يستطيع إلزام المنكر المعاند ، ولو أنه كان في إمكانه إلزام المنكر لما بقي على سطح الأرض من ينكر الله . ولما كان من المستحيل إلزام المنكر عن طريق الاستدلال فقد انصرف اهتمام علماء المسلمين إلى إثبات وحدانية الله أكثر من اهتمامهم بإثبات وجوده ، وهذا الموقف الذي اتخذه العلماء المسلمون موقف صحيح تمام الصحة ، ذلك لأن محاولة إثبات وجود الله معناها مقايسة « واجب الوجود » مع « ممكن الوجود » والقديم مع الحادث والأزلي مع الفاني والمطلق مع النسبي . . . وهذا غير ممكن .

والخلاصة إن أحكام الإسلام العقائدية (أي مبادىء آمنت) لا تتعارض مع العقل ومع العلم فهي ليست مبادىء للعلم وللعقل بل هي الحقائق التي أخبرها الوحي والتي إما أن يتوصل الإنسان بواسطتها إلى الهداية أو يبقى في ضلال بعيد..

الأحكام العملية الإسلامية والعلم :

قلنا إن المجموعة الثانية من أحكام القرآن الكريم هي الأحكام العملية ، إن الإيمان هو حركة قلوبنا ، أما العمل فهو حركة وعلاقة وجودنا وأعضائنا البدنية ، والعمل في الإسلام ليس إلا وظائف حددتها الأوامر والنواهي الإلهية والتي تأتي العبادات في مقدمتها ، والعبادات هي الفرائض التي يجب على الفرد المسلم ايفاءها للخالق كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، ثم تأتي الأخلاق بعد العبادات في العمل الإسلامي ، والأخلاق عبارة عن مجموعة من التصرفات وصور للعلاقات التي نستطيع تصنيفها إلى « فردية » و« اجتماعية » ، فالخلق الفردي هو وظيفة المرء تجاه نفسه ، والخلق الاجتماعي هو وظيفته تجاه الاخرين . ثم تأتي الحقوق كاستمرار للإخلاق ، وهي أخلاق ربطت بمؤيدات من الدولة وتنقسم إلى أقسام عديدة كحقوق العائلة وحقوق الملكية والدين والجزاء والإدارة . . . الخ .

أما إذا أتينا إلى وضع وعلاقة هذه الأحكام العملية مع العلم فيستلزم تطبيق القاعدة الثانية التي سبق ذكرها ، أي إن علينا ـ بخصوص هذه الأحكام ـ اتباع النص الصريح الواضح إن وجد ، فإن لم يكن هناك نص صريح فيتبع طريق العلم إن وجد هناك تعارض ما معه .

الأحكام الفلسفية والعلمية في الإسلام والعلم الحديث :

والآن لنأتي إلى وضع الأحكام الفلسفية والعلمية القرآنية أمام العلم الحديث : إن القاعدة التي تطبق في هذا الخصوص هي القاعدة الأولى ، أي إذا تعارض أي حكم من هذه الاحكام مع العلم الحديث ، وإذا كان ظاهر النص يناقض العلم يتبع العلم ويفسر ويؤول النص ويوفق مع العلم . أما إذا لم تكن هناك امكانية أو مجال لتوفيق معنى النص مع العلم يفوض مدلول ومعنى النص إلى الله . أي إن لسان حالنا يقول عندئذ : « اننا لا نستطيع ان نعلم معنى ومدلول هذا النص وعلمه عند الله » ونتبع طريق العلم*

* * * *

أجل . . . إذا شوهد أي تناقض بين العقل وبين النقل ، أي بين العلم وبين الدين يسلك طريق العقل أي طريق العلم ، أما النقل - أي الدين - فيؤول ، وهذا شيء طبيعي ، فإن فهم العقل للنقل - أي الدين - يتغير بتغير الزمان والأحوال والحوادث ، ولكن الأحكام يجب أن تتغير كذلك** وفقا لهذه الشروط ذلك لأن هناك قاعدة اسلامية تقول : « إن الأحكام تتغير بتغير الزمان » وإلا يكون الدين قد كلف الإنسان أعمالا وأموراً لا يصل إليها عقله بل لا يقبلها . . . ومثل هذا التكليف مغاير للقواعد الاسلامية كل المغايرة .

---

* لا يفصل الكاتب هنا معنى العلم ، فالعلم درجات ، وهو يبدأ من الفرضية العلمية وينتهي بالبديهية العلمية .

(المترجم)

** الأحكام التي تتغير هي الأحكام الجزئية والمتعلقة بالأعراف لذلك قال العلماء : العرف محكم .

(المترجم)

المدرسة التي ترجح النص في كل الأحوال (المدرسة النصية) :

ومع هذا فإنه من الممكن إبداء رأي يعاكس هذه النظرة التي شرحناها وذلك بإعطاء النقل ـ أي الدين ـ تفوقاً عاماً مطلقا على العقل ، إذ نرى مجتهدين ذوي آراء متصلبة كمالك بن أنس (٩٥ ـ ١٧٩ هـ) ـ الذي اتبع الروايات المنقولة عن علي بن ابي طالب (رضي) ـ الذي يرى أن العقل لا يمكنه معارضة النص ، ذلك لأن المعارضة لا تكون إلا بين قوتين متكافئتين مع أن العقل ضعيف والنص متين ، فالعقل يواجه دائما احتمال الخطأ والانخداع ولا يتمكن بأقيسته الظاهرية السطحية الإحاطة بالقوانين والأحكام الإلهية ، لذلك يجب على العقل أن يكون تابعاً للنص* .

---

* لنا بعض الملاحظات على هذه الأسطر الأخير :

من ناحية شيوخ مالك بن أنس والعلماء الذين تفقه على أيديهم فهم : ابن هرمز ، وأبو الزناد ويحيى بن سعيد الأنصاري وربيعة وابن شهاب ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهم (انظر : مالك : حياته وعصر ـ آراؤه وفقه ـ صفحة ٩٥ للشيخ محمد أبو زهرة)

أي إن مالكاً لم يقتصر على الروايات المنقولة عن علي كرم الله وجهه ، بل نقل عن الرسول (ص) ونقل أخبار الصحابة ومواضع اختلافهم واتفاقهم .

ولم يكن مالك نصيا ، مع أن بعض الكتاب توهموا قلة الرأي في فقهاء المدينة ـ ومالك منهم ـ بسبب كثرة الآثار المروية عند المدنيين . يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه المذكور أعلاه (صفحة ١٥٣) : « . . . انتهينا من هذه الدراسة إلى أن الرأي بالمدينة لم يكن قليلا كما توهم عبارات بعض الكتاب إذ في كل طبقة من طبقات فقهاء المدينة وجد ذو الرأي وكان له مكان في تكوين فقهها ففي طبقة الصحابة كان عمر وزيد وابن عباس وغيرهما ، وفي طبقة التابعين كان الفقهاء السبعة ويقصد

وخمسة منهم كانوا من ذوي الرأي ، وفي الطبقة التي تليهم كان ربيعة الرأي ويحيى ابن سعيد وكثير بن فرقد »

وإن كان هناك فرق بين الرأي في الفقه العراقي الذي كان يعتمد على القياس والاستحسان

ثم إن هناك شيئا آخراً ، فإن تأويل النص حسب العلم والعقل في حالة تعارضه معهما إنكار لصحة كونه حقيقة إلهية ، ذلك لأن النص حقيقة وضعت مرة واحدة ولكنها وضعت لتبقى ما بقي العالم ، أما العقل فهو ملكة متغيرة على الدوام بين الأمم بل حتى بين الأشخاص وهو يغيّر بشكل دائم مقاييسه أو بتعبير آخر إن العقل بشرى أما النص فهو فوق البشر ، العقل سفلي والنقل قدسي ، العقل محدود بالمادة محاط بها ، أما النقل فهو مجرد عن المادة متحرر منها ، وبناء على ذلك فإن تأويل النص حسب العقل يعني ربط الحقائق الدينية بمفاهيم كل دور وكل أمة ، بل بمفهوم ونظرة كل شخص وهذا يعني هز الدين من اساسه ، ويعني إيضا تبعية القدسي للسفلي والعالي للهابط . . . . وهذا شيء غير منطقي .

والخلاصة إن هذه المدرسة ترى وجوب اتباع الانسان للنص في جميع الأحوال ، لأن العقل البشري يخطىء والنص الإلهي لا يخطىء فهو محض حقيقة .

اقتراح العقليين والنقليين :

إذا فكرنا ملياً في هاتين النظرتين حول العلم والدين (النظرة العقلية والنظرة النصية) نرى أنهما لا يتنافيان مع بعضهما بل إن إحداهما تكمل الأخرى وتتمها .

والأخذ من العرف العراقي وبين الرأي المدني الذي لا يعتمد على القياس العقلي بل على المصالح وعلى عرف أهل المدينة .

ولا نعني بهذا عدم وجود المدرسة النصية التي تسمى بـ « الظاهرية » والتي يسرد المؤلف آراؤها هنا ، وإنما نقول إن مالكاً لم يكن من هذه المدرسة .

(المترجم)

والحقيقة إنه قد يكون هناك تعارض بين العقل والنقل وقد لا يكون ، ففي مسائل الإيمان والعقيدة أي في مبادىء (آمنت . . .) لا يوجد هناك تعارض ولا يمكن أن يوجد ، ذلك لأن العقل عاجز في حقيقة الأمر في مثل هذه المواضيع أما العلم فقاصر ، إن العقل والعلم الانساني لا يستطيعان أثبات أو إيضاح مبادىء (آمنت . . .) فعقيدة الآخرة والبعث بعد الموت ـ التي هي من هذه المبادىء ـ حقائق دينية تتجاوز حدود العلم ، ولكن يجب الانتباه إلى أنه إن كان غير ممكن إثبات هذه الحقائق بوسائل العقل والعلم ـ والتي هي عبارة عن التجربة والمشاهدة والمقايسة ـ فانه من غير الممكن أيضا إنكارها ، ذلك لأن العلم لا ينكر شيئا لا يستطيع إثباته وإنما أقصى ما يستطيع أن يقوله هو : « أنني لا أعلم » .

أما جانب العمل والعلم والمعرفة في الدين فقد توجد هناك فروق أو تضاد بين العقل والنقل ، وهذا شيء طبيعي ، أما الزعم بعكس هذا فهو أنكار للواقع* . أقول إن وجود التضاد شيء طبيعي ذلك لأن النص ـ كما قلنا سابقاً ـ حقيقة وضعت مرة واحدة لجميع الأمم ولجميع الأزمنة ، أما العقل فهو في تغير دائم بتغير الأزمنة ، أما العلم الذي هو ثمرة العقل فهو في طريق التوسع والتكامل الدائم ، وبموازاة هذا التغير الدائم والتكامل المستمر للعقل والعلم تتغير نظرة وطراز سلوك الناس وتتغير أشكال العلاقات الاجتماعية ، ولا نستطيع أن نحصي هذه التغييرات والتجديدات التي حصلت منذ بداية ظهور الاسلام حتى يومنا هذا ، ولكن أمام جميع هذه التغيرات والتجديدات ـ يجب أن يتغير مدلول وإيحاء النص الذي يبقى محافظاً على لفظه وأساسه . كلا . . . لا يتغير مدلول النص وإنما تتغير نظرتنا نحن ويتغير ما تفهمه عقولنا القاصرة ـ تبعا لتغير

---

* لا وجود لأي تضاد بين النصوص القرآنية القطعية وبين القطعيات العلمية (وليست النظريات العلمية الظنية) (المترجم)

العلاقات الحياتية ـ من الحقائق الأبدية للنص ، ونحن نستنبط من أسرار النصوص ما يلائم ويطابق الأوضاع المتجددة من حياتنا ، وهذا جهد علمي يطلق عليه اسم « الاجتهاد » في الإسلام .

فكرة الاجتهاد هي مفتاح القضية :

والآن نكون قد وصلنا ـ بفكرة الاجتهاد ـ إلى النقطة الحيوية في هذه القضية ، فليس من الصواب عدم اعتبار النصوص التي تتعارض ظاهرياً مع العلم من الدين إن كنا نريد تأسيس السلام بين أهم مبدأين في الحياة وهما الدين والعلم . نحن نعتقد بأن الصواب هو في تفسير مثل هذه النصوص بروح أخرى والنظر إليها من زاوية أخرى في مواجهة الحوادث الجديدة ، ومحاولة فهمها من جديد ، وكما قلت فإن هذا الجهد يطلق عليه اسم « الاجتهاد »[1] . إن الاجتهاد وظيفة دينية كبرى تأتي بعدها وظيفة الإفتاء والقضاء وهي تشكل ذروة مراتب التفقه ، والذين يقومون بهذه الوظيفة يدعون بـ « المجتهدون » .

وكما هو معلوم فإن الأحكام الإلهية في الاسلام تبلغ إلى الناس عن طريقتين : طريق « الرواية » وطريق « الدراية » ، والذين يبلغون أوامر الشرع ونواهيه عن طريق الرواية هم « المحدثون » أو « رجال الحديث » أما الذين

---

(١) منذ القرن الثاني للهجرة ظهر مجتهدون كبار ومذاهب ، إذ ظهرت الحاجة الى فهم جديد وتفسير جديد للنصوص لملائمة الحياة كلما ابتعد عن عصر النبي (ص) وكلما ازدادت الصلة مع الامم الاخرى ، والمجتهدون امثال الامام ابو حنيفة كانوا اشخاصا اوجدتهم هذه الحاجة .

يبلغون عن طريق الدراية فهم الفقهاء[٢] ، ورواة الحديث ليسوا بفقهاء مع أن منهم من يجمع الفقه مع رواية الحديث ، إلا أن الجميع ليسوا كذلك . فالمحدثون هم الـذين ينقلون بصدق وأمـانة مـا سمعوه أو رأوه من النبي (ص) أو من أصحـابه ، والـذين يحفظون أحـاديث كثيـرة من هؤلاء يـدعـون بـ « حفـاظ الحديث » . أما الفقهاء فهم علماء الإسلام[٣] الذين يحاولـون أن يفهموا أولا الأحكام الشرعية ـ بعد إعمال الفكر فيها ـ ومن ثم يبلغونها للناس ، والفقهاء المسلمـون ينقسمون إلى مجتهـدين ومفتين وقضـاة . وللمجتهدين مـراتب فيما بينهم ، ويحتل مجتهدو المذاهب أرفع هـذه المراتب ، وعـدد المذاهب الـرئيسية الباقية إلى يومنا هذا أربعة وهي : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وقد بدأت هذه المذاهب بالظهور في القرن الثاني للهجرة ، وتتحد هذه المذاهب الأربعة في

---

(٢) يمكن تصنيف العلوم الاسلامية بطرق مختلفة ، فبالنسبة لاحدى التصانيف تقسم هـذه العلوم الى قسمين : علوم الوسيلة وعلوم الغاية . فعلوم الوسيلة هي العلوم التي تعين على فهم الكتاب والسنة كالنحو والصـرف والبيان والبـديع . امـا علوم الغايـة فهي العلوم المستخرجة من الكتاب والسنة وهي تنقسم الى : الفقه وعلم الكلام ، وعلم الكلام هو علم المنطق في الاسلام اما الفقه فيتفرع الى : الاصول والفروع ويعرف الامام ابو حنيفة الفقه كما يلي : « هو معرفة الشخص لحقوقه وواجباته » وكما يفهم من هذا التعريف فان الفقه الاسلامي يشمل اموراً واسعة متعددة فهو يشتمل على الحقوق والاخلاق والسياسة ، ويقابل ما يعرف اليوم بـ « العلوم الاجتماعية » لذلك فان الفقه معناه الحقوق والاخلاق والسياسة الاسلامية .

(٣) الفرق بين الفقيه وحافظ الحديث تبينه هذه الرواية بكل وضوح :
سأل الاعمش ـ وكان من حفاظ الحديث ـ الامام ابا يوسف تلميذ الامام ابي حنيفة عن مسألة فأجابه ابو يوسف ، وقد سر الاعمش بهذا الجواب وسأله من اين استخرجه ، فقال أبو يوسف : « من الحديث الذي كنت قد رويته لي » فقـال له الاعمش : « بـارك الله فيك ، والله اني كنت احفظ هذا الحديث قبل ان تولد ، ولكني لم أكن اعلم ان له هذا المعنى »

الأحكام الأساسية للإسلام ، وهي تختلف فيما بينها في بعض الأحكام العملية .

المجتهد هو الفقيه الذي يستخرج الأحكام الإلهية من القرآن والسنة ويبلغها إلى الناس متحملا مسؤولية صحة هذه الأحكام ومطابقتها للمعاني التي أرادها الله ورسوله . أما المفتي فلا يستخرج الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة وإنما يتعلمها من المجتهد ويبلغها للناس . أما القاضي فهو الفقيه الذي لا يكتفي بالتبليغ وإنما يطبق الأحكام الشرعية وينفذها . ومع أن كل مجتهد يعتبر مفتياً في نفس الوقت إلا أنه ليس من الضروري أن يكون كل مفتٍ مجتهداً يستخرج الأحكام من الكتاب والسنة ، وكذلك الحال مع القاضي ، فمع أنه من المستحسن يكون مجتهداً في نفس الوقت ، إلا أنه لصعوبة تحقيق هذا الشيء على الدوام ، يكتفي بتقليده لأحد المجتهدين وفهمه(٤) له . ومع أن هناك فرقاً بين الإفتاء والقضاء وبين المفتي والقاضي (٥) إلا أنهما يجتمعان عند واجب ووظيفة التبليغ ، وهما يفترقان بصورة رئيسية عن المجتهد . فالمفتي والقاضي يعرضان الأحوال والحوادث والأفعال المعروضة عليهما على القواعد والقوانين الشرعية الموجودة ، فإن كانت مطابقة لها أعطينا الحكم بصوابها وبصحتها وإلا قضينا بخطئها وببطلانها . أما المجتهد فلا يفعل هذا ، فهو بالذات يصنع هذه القوانين والقواعد باستخراجها وباستنباطها من الكتاب والسنة ، فهو استنادا إلى الكتاب والسنة يحدد ويكشف عن القواعد والقوانين الشرعية ، أي إنه بتفسيره وتأويله للشرع حسب العقل والعلم وحسب شروط وصور العلاقات الاجتماعية للعهد يزيل ما قد يحدث من اختلاف بينهما ، وهو بهذا يؤمن استمرار الدين واستقراره .

---

(٤) يراجع هذا البحث بتوسع في كتاب : « الحاكم التركي الكبير السلطان محمد الفاتح : حياته وعدله » للاستاذ علي همت بركي ـ صفحة ٣٩ ـ ٤٠ وما يتبعها .

(٥) يراجع « كتاب الافتاء والقضاء » للاستاذ المرحوم اسماعيل حقي .

وبما أن الإسلام باقٍ حتى يوم القيامة فإن هذا البقاء والاستمرار لا يتحققان إلا بهذه الوسيلة وإلا تقطعت ما بين الدين والحياة من روابط وانفصل احدهما عن الآخر وسلكتِ الحياة طريقا ينكره الدين ، وهذا يؤدي إلى خمود شعلة الإيمان في القلوب شيئا فشيئا .

إن الحركات الاجتهادية ـ التي كان الإمام أبو حنيفة والإمام مالـك على رأسها ـ التي ظهرت في الإسلام في القرن الثاني للهجرة تولدت من هذه الحاجة ومنعت مثل هذا الخطر ، فبفضل جهود ونشاط هؤلاء المجتهدين الكبار تخلص الإسلام في ذلك العهد من خطر وضع فوضوي . وقد نتج هذا الوضع من تجاوز الإسلام لحدود الحجاز وانتشاره في أقطار كانت مراكز للمدنيات القديمة كالعراق وإيران وسوريا ومصر ، فقد واجه الكتاب والسنة في هذه الديار فلسفة وعلوم اليونان وروما وبيزنطة القديمة ، وكذلك الثقافة الهندية ـ الإيرانية ولم يكن هناك إلا حل واحد لكي لا يقع الإسلام مغلوبا على أمره في هذا الصراع وهو أن يقابل الخصم بنفس السلاح ، أما سلاح خصمه فلم يكن سوى المنطق والمعقـول ، لـذلك فقـد أصبح من الـواجب أن ينتقل كتـاب الإسلام وسننـه إلى سـاحـة « الدراية » أي أن يفسرا ويفهما في مجال المنطق والمعقول ، وأن لا يبقي في مجال « الرواية » و « النقل » فقط . كان هذا ضرورياً لبقاء الإسلام كدين يخـاطب العقل وكدين ينشيء حركة ثقافية وقد نجح على الأخص في هذا الأمر الإمام أبو حنيفـة عندمـا أعطى للرأى وللقيـاس وللاستحسـان مجالاً كبيـراً في خصوص التشريع والحقيقة أن جميع المذاهب الإسلاميـة الصحيحة تعـطي أهمية كبيـرة للاجتهاد وللعقـل ، غير أن الأهميـة التي يعطيهـا الإمام أبـو حنيفة لهـا تفوق الجميع ، فهذا الإمام العبقري يرى أن الأدلة التي تقود إلى الحقيقة ثلاث وهي :

النص والإجماع والعقل* « . . . إن ما يبطله العقل بصورة قطعية لا يمكن أن تجوّزه الشريعة ، والمحال في حكم العقل محال شرعاً ، وورود العقل بخلاف الشرع محال»[(٧)] .

ان هذا الإمام الذي يعتبر من أعلم علماء الإسلام قد أرشد الذين يأتون بعده إلى طريق السلامة والحقيقة هذا القسطاس للعلاقة بين العقل والنقل وبين العلم والنص ، ولكن بشرط أن نتخلص من عمى البصيرة وأن نستطيع رؤية هذا الطريق .

النص والنقل في مواجهة العقل :

لنتأمل مرة أخرى هذه القاعدة التي نقلتها من المرحوم السيد نسيب « أن ما يبطله العقل بصورة قطعية لا يمكن أن تجوزه الشريعة ، والمحال في حكم العقل محال شرعا ، وورود العقل بخلاف الشرع محال » ثم لنستمع من رئيس الشؤون الدينية المرحوم أحمد حمدي آكسكي إلى أجمل شرح لهذه القاعدة « بما أن الدين الإسلامي يستند على العقل ، لذلك وجب أن لا يكون هناك أي تناقض بين العقل وبين النص . والحقيقة أن جميع المفكرين المسلمين . عدا زمرة قليلة لا يعتد بكلامها ـ متفقون على هذه النقطة وهي : ليس هناك من تعارض حقيقي بين العقل وبين النقل ، فإذا شوهد اي تعارض فيما بينهما يقبل حكم العقل ويختار للنقل أحد هذين الطريقين :

---

* لعل المؤلف يقصد « القياس »

(المترجم)

(٧) انظر الى : « اسس الفقه الحنفي » والى « المسائل المتعلقة بالقياس والدين » للاستاذ السيد نسيب .

١ ـ أن يؤول النقل والنص ـ استنادا على قواعد اللغة ـ حتى يطابق الحقيقة الثابتة عقليا ، فيزال ما بينهما من خلاف وتعارض .

٢ ـ أن يقبل النص كما هو ويفوض علم معناه الحقيقي إلى الله تعالى . أي إننا نقول بأن النقل صحيح ولكننا لم نستطع فهمه وعلمه عند الله تعالى أي إيمان بالأصل وتوقف وتسليم للوصف .

أما الأول فهو مذهب الخلف وهو أحكم ، والثاني هو مذهب السلف وهو أسلم ، فطبقة الشعب من الصناع والكسبه والتجار وغيرهم من الذين لا يتيسر لديهم الوقت الكافي ـ نتيجة لأعمالهم ولطراز حياتهم ـ لتدقيق هذه المسائل واستخراج معانيها يكون من الأوفق لهم التزام مبدأ التفويض . أما الذين آتاهم الله قريحة قوية وتحصيلاً للعلم عالياً ومقدرة على فهم وبحث مثل هذه المسائل فالأوفق لهم اختيار المذهب الأول في المسائل التي يدل ظاهرها على وجود تناقض بين النص وبين العقل السليم . ومع هذا فإنه ـ يجوز لهم أيضا أن يفوضوا حقيقة المعنى الى الله تعالى على طريقة اهل السلف .

أما لماذا يتبع حكم العقل إذا وجد تناقض ما بين ظاهر الشرع وبين العقل فيرجع إلى سببين :

أ ـ أن الحق في نظر الإسلام واحد لا يتعدد .

ب ـ استحالة إجبار العقل على تقبل عقيدة محالة أو حكم ثبت خلافه بأدلة وبراهين*

وهكذا يكون التصرف مع نصوص القرآن أو الحديث إذا كان ظاهرها

* هذا الموضوع كله موضوع نظري ، إذ لا يوجد في الواقع أي تعارض بين المعطيات القاطعه للعقل وبين المعطيات العلمية القاطعة . (المترجم)

يخالف العقل ، فبواسطة هذه القاعدة التي يسري حكمها على القرآن والحديث انفتحت الطرق بأجمعها أمام العقل وذلت العقبات بأكملها أمام التقدم فتوسعت الساحة التي يجول فيها العقل إلى غير ما حدود .

إن هذا شرح جميل وواضح جداً ، ولكنني مع هذا أختلف مع المرحوم السيد أحمد حمدي في نقطتين :

١ ـ إن الأستاذ يرى عند ظهور تعارض بين العقل والنقل ـ مع قبول حكم العقل ـ أن يسلك طريقان بالنسبة إلى النقل ، أما أن يؤول النقل أو يفوض معرفة معناه الحقيقي إلى الله تعالى .

ولكن بما أن بعض فقهاء الإسلام التزموا الطريق الأول ، أي طريق التأويل واختار البعض الآخر الطريق الثاني ، أي طريق التفويض ، وبما أن كلا الطريقين صحيحان ، لأنهما طريقا أهل السنة ، إذن فبدلاً من التفريق بين هذين المذهبين وبدلاً من القول بأنه من أراد فليسلك هذا الطريق ومن اراد فليسلك ذلك الطريق فإن من الأفضل أن نسلك طريق المزج والتقريب بين هذين المذهبين وذلك بسلوك طريق التأويل في بعض مسائل العمل ، وفي جميع مسائل العلم والمعرفة ، ويسلك طريق التفويض والتسليم في جميع مسائل العقيدة وبتعبير آخر فإن علينا أخذ النص والنقل كما هو في مجال مبادىء (آمنت . . .) والتمسك الكامل بالكتاب والسنة دون تردد ، أما إذا ظهر خلاف بين العقل والنقل خاصة في المسائل الفلسفية والعلمية يسلك طريق الاجتهاد وطريق التأويل دائما للتقريب بينهما .

اذا تأملنا اقتراحنا هذا الذي يقرب بين المذهبين ويوحد بينهما نرى أنه أسلم من تفضيل أحد المذهبين على الآخر ، وأكثر منطقية وذلك :

أ ـ ليس هناك من حل آخر سوى التمسك بالنص والنقل أمام مبادىء (آمنت . . .) ذلك لأن هذه المبادىء ـ كما قلنا مرارا ـ تتجاوز حدود العقل وتتجاوز حدود العلم لذلك فإن من المستحيل إيضاحها أو إثباتها عقليا وعلميا ، والشيء الذي لا يمكن إثباته أو إيضاحه بواسطة العقل والعلم لا يمكن كذلك انكاره بالعقل والعلم ، وليس من الأصول العلمية ولا من العقلية العلمية إنكار شيء بسبب أن العقل لا يستطيع إدراكه .

ثم إن هذه المبادىء تخاطب ضمير الفرد وتعيش في حياته الوجدانية والفرد يستطيع إن يتقبلها بإخلاص قلب أو أن يرفضها ، أو أن لا يقبلها ولا يرفضها فيتقلب في شك عميق . وإيمان الفرد بهذه المبادىء أو رفضه لها أو شكه فيها لا يكون نتيجة للأدلة العقلية والعلمية بل هو نتيجة لحالة روحية آتية من أعماقه . ان الفرد الذي يؤمن بالله ـ ويؤمن ببقية مبادىء (آمنت . . .) ـ لا يفتش عن أدلة عقلية أو علمية لهذا الإيمان ، ولكنه يؤمن استجابة لنداء آت من اعماقه . اما الذين يطالبون ببراهين وادلة حتى يؤمنوا فانهم يفتشون في الحقيقة عن معاذير حتى لا يؤمنوا . والخلاصة إن الإيمان لا يأتي عن طريق البحث والتأمل العقلي وانما يأتي عن قابلية واستعداد روحي خاص وهذا ما يعبر عنه في الإسلام بـ « الهداية » .

صحيح أننا إذا تأملنا السماوات والأرض وما يجري فيهما ـ كما يقول القرآن الكريم [8] ـ نرى أن كل شيء يدعونا بلسان حاله إلى الإيمان بالله وبوحدانيته وذلك بشرط أن تكون لنا من البصيرة ما نفهم بها هذه الدعوة . أما الذين على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فلا يجدي معهم شيء ، إذ لا

---

٨ ـ سورة يونس : الآية ١٠١

يسمعون لسان حال ما في السماوات والأرض .

والخلاصة إن العقل عاجز في مسائل الإيمان والعقيدة ، أما العلم فهو غير كافٍ وغير وافٍ .

إن محاولة إدراك وجود الله وإدراك صفات كماله بالعقل ومحاولة إيضاحه وإثباته بواسطة العلم هي محاولة فهم وإثبات واجب الوجود بممكن الوجود ، والقديم بالحديث ، والأبدي بالزائل ، وهي محاولة لوضع الوجود الإلهي في نطاق الممكنات ، لذلك فنحن مضطرون في مسائل العقيدة إلى أخذ النص كما هو والابتعاد عن التأويل .

ب ـ ولكن الموقف يختلف في المسائل العلمية والخلقية ، ذلك لأن النص والنقل هنا لا يخاطبان وجدان الانسان وحياته النفسية بل يتعلقان بأفعاله وبحركاته وبعلاقاته مع الآخرين ، فكل نص في مجال العمل يتضمن « تكليفا » ويحمل المؤمنين مسؤولية فيأمرهم أن يفعلوا هذا وأن يبتعدوا عن ذاك ، وبما أن أساس المسؤولية ومدارها هو « العقل » في الانسان ، لذلك كان من الضروري لكي يكون الفرد مسؤولا ومكلفا بأي حكم من أحكام الشرع أن يتقبله وأن يطمئن إليه عقليا ، وإلا كان مسؤولا ومكلفا بتكاليف لا يفهمها عقله ولا يتقبلها تفكيره ، ويكون مساقاً إلى تصرف يخالف عقله ، وهذا يخالف النظرة الإسلامية مخالفة كبيرة . فحسب النظرة الإسلامية

[. . . لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها][9] و[لا يكلف نفساً إلا وسعها][10] و[لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي][11] .

---

٩ ـ سورة الطلاق : الآية ٦

١٠ ـ سورة البقرة : الآية ٢٧٦

١١ ـ سورة البقرة : الآية ٢٥٦

اذن ما دام العقل هو مناط التكليف في الإسلام وما دمنا أمام نص لا نقبله أولا تفهمه عقولنا فإننا نحاول أن نقرب النقل من العقل ونصالح بينهما ولأجل هذا نستفيد تارة من القواعد اللغوية ومن أصول التفسير وتارة من الأحكام الأخرى للكتاب والسنة وتارة من مجموع النظرة الإسلامية والروح الإسلامية ومن الإجماع الإسلامي ، ولكننا نكون تابعين وخاضعين للنص في مجال العمل - وخاصة في مجال العلم والمعرفة - عن علم واطمئنان عقلي .

إن حل الأزمة الدينية الموجودة حاليا يكمن - في رأيي الشخصي - في تأسيس الصلح بين العقل وبين النقل أي بين العلم وبين الدين . وهذا ممكن كما حاولنا إيضاحه سابقا ، والحقيقة إنه لا يوجد أي تناقض في الدين الإسلامي أو تعارض بين العقل وبين النقل ، ذلك لأن أسس العقيدة خارجة عن حدود العلم والعقل فلا يمكن أن يكون هناك صدام في ساحة هي اصلا خارجة عن حدود العلم ، ثم أنه إذا ظهر خلاف بين العقل والنقل - في المسائل العلمية - يؤخذ بمنطق العقل وتعتبر نظرة العلم حقيقة ، ذلك لأن الحقيقة واحدة في نظرة الإسلام وليست هناك من حقيقة تخالف العلم والعقل ، ففي هذه المسائل وعندما لا يكون النص والنقل صريحين فإنهما يؤولان ويفسران من جديد لإزالة الخلاف . ولكن إذا كان النص واضحا ومدلوله صريحا فإننا في هذه الحالة نستعمل القاعدة الثانية التي سبق أن ذكرناها والتي تنص على أنه « لا اجتهاد مع النص » أي إنه لا يمكننا سلوك طريق التأويل أو طريق الاجتهاد مع وجود النص الواضح الصريح ، بل نتمسك بالنص ، فمثلا : الصلاة والصيام والحج والزكاة التي هي من شروط الإسلام تدخل في هذا المجال ، فهذه الشروط ثابتة بنصوص واضحة من الشرع المبلغ من قبل النبي (ص) ، كذلك فلا نستطيع تعديلها أو تأويلها حسب

عقولنا ، ولا يمكن أن ننتسب إلى الإسلام دون أن نأخذ هذه النصوص كما هي ودون أن نطبق هذه الشروط كما حصل عليها الإجماع ، والإ فإن إمكان التأويل مع وجود النص الصريح - كما يفعل بعض من لا يفهمون - لا يبقى أثراً للدين .

إذن فإن طريق الاجتهاد والتأويل مفتوح على مصراعيه - إلا في مسائل العقيدة وفي النصوص الواضحة للمسائل العملية - في المسائل العلمية والفلسفية والقانونية والسياسية حيث يؤول الدين حسب العقل إذا كان هناك تعارض ما بينهما ، وهكذا لا يبقى أي مجال للصدام أو التضاد حتى في مجال الأحكام العلمية ، والنتيجة ان الإسلام يعيش في سلام مع تجليات العقل ومع تكامل العلم في جميع الأدوار والعهود .

أما النقطة الثانية التي أختلف فيها مع المرحوم السيد احمد حمدي فهي :
- لمن يحق تأويل وتفسير النقل ؟

إن القضية بأكملها تكمن في تعيين الذين يحق لهم التأويل والتفسير ، وهنا أحب أن أقف قليلا حول هذه النقطة لأعترف مسبقا بأن هذه من أدق ومن أخطر المواضيع في الدين ، وإن بحث مثل هذه المسائل المهمة والدقيقة من قبل امثالي من الذين لا تتوافر فيهم القدرة العلمية ولا الصلابة الدينية لأمر له خطورته وله وباله ، هذا ما أعترف به .

ولكن لنعلم أن مستقبل الإسلام ومستقبل المسلمين وسلامتهم اليوم في خطر ، فالإسلام ودنيا الإسلام محاطان اليوم من جميع الجواب بالتهديد ، وفي مثل هذا الوضع يكون من وظيفة كل من يرى هذا الخطر ويتمزق قلبه ألما له أن يتناول هذه القضية على الأقل - إن لم يستطع حلها - وأن يلفت إليها أنظار وانتباه أهل العلم والعقيدة اذ ليسّ هناك من مانع أن يتوجه القاصد في العلم إلى

أصحاب العلم ، أو أن يرغب في سلامة الدين وأمنه من هو مقصر في الدين .

نعم إذا تعارض العقل مع النص يرجح العقل ويؤول النص ، ولكن من قِبَل من سيكون هذا التأويل وهذا الترجيح ؟ إن المرحوم السيد أحمد حمدي يصنف المسلمين إلى صنفين : صنف متعلم تعليماً عالياً ويجد من الوقت ما يبحث ويدقق فيه المسائل الدينية فهو يعطي له مباشرة حق التأويل ، أما الصنف المشغول بالأعمال والناقص من ناحية المعرفة والثقافة فإنه يعطى له وظيفة اتباع النص .

لا شك أن هذا هو الطريق الإسلامي والإسلوب الإسلامي وإن الإسلام بإعطائه الفكر هذا الحيز الكبير وباتباعه هذا الطريق الحر قد افترق عن جميع الاديان الاخرى واظهر سموا - يستحق التقدير والأعجاب .

ولكننا نعتقد بأن هذا الطريق طريق خطر اليوم لأنه ملائم لتوليد فوضى الفكر والاجتهاد في الدين ، فإذا أعطى كل واحد للنص وللنقل حسب ما يراه من معنى فإن الفوضى ستكون هي النتيجة المحتومة . إن هذا الطريق أو الأسلوب لا يجوز حتى في تفسير القوانين الوضعية ، فمن باب أولى لا يجوز في الأحكام الدينية ، وقد كان الحذر والخوف من ظهور مثل هذا الوضع الفوضوي هو الذي حدا ببعض المجتهدين المرموقين - كالإمام مالك - إلى إعطاء النص ترجيحا في جميع الأحوال وإلى التوصية بسلوك طريق التمسك بالنص دائما ، بل ذهب بعض المتأخرين - لنفس هذا السبب وهو الخشية من ظهور هذا الوضع - إلى القول بأن باب الاجتهاد قد سد . كما هو معلوم فإن باب الاجتهاد لم يسد ، ولكنه الآن مسدود لعدم وجود أهل الاجتهاد ولكنه مفتوح في كل زمان لأهله .

وجوب اتباع نوع من الاجتهاد الرسمي بدلا من الاجتهاد الحر :

والخلاصة إننا نعتقد بأن طريق التأويل والتفسير الحر خطر اليوم أكثر من اي وقت آخر ، ونحن نفضل الآن سلوك طريق التفسير والتأويل الرسمي وكما يلي :

١ ـ أن يجتمع « مجلس شورى للبلدان الإسلامية » بدعوة من تركيا وهذا المجلس سيتألف من اشتراك عدة علماء من كل بلد إسلامي .

٢ ـ يشكل هذا المجلس لجنة باسم « لجنة الاجتهاد » من أعلم العلماء المعروفين ويعهد إلى هذه اللجنة تدقيق أحكام العبادة والعمل في الإسلام وتتناول مسائل العلم والمعرفة بالبحث والتدقيق حسب اجتهاد جديد .

٣ ـ ستكون لهذه اللجنة ـ لجنة الاجتهاد ـ التي ستتألف من عدد محدود من الأعضاء من ذوي الكفاءات العالية صفة دائمة وستكون نوعا من الأكاديمية الإسلامية وبمثابة الدماغ المفكر للعالم الإسلامي المعاصر .

٤ ـ ستقوم لجنة الاجتهاد هذه استنادا إلى كفائتها العلمية وصلابتها الدينية باجتهادات جديدة حول أحكام العبادة والعمل في الدين وسينشر ويعمم « مجلس الشورى للبلدان الإسلامية » الذي سيجتمع بشكل دائم ما يقبله وما يصادق عليه من هذه الاجتهادات التي ستكون لها قوة إجماع الأمة في جميع البلدان الإسلامية .

* * *

هذا ما أراه من أجل إزالة الخلاف بين النص والنقل وبين العلم في زماننا الحاضر والذي أرى أنه يتمشى مع الأسس الإسلامية ، وأنا أعرض هذا الرأى أمام أنظار علمائنا في الدين للتصويت أو النقد .

هنا قد يخطر على البال هذا السؤال : هل يستطيع هذا المجلس أن يجتمع وهل تستطيع هذه اللجنة أن تتألف وأن تعمل بشكل مفيد ؟ أي إن السؤال يكون متوجها إلى امكانية التطبيق . وأنا أجيب دون تردد بأن إيجاد حل بعد التفكير شيء ، وإجراء وتطبيق هذا الحل شيء آخر . لقد فكرت وتوصلت إلى حل وتدبير من ناحيتي ، أما تطبيقه فليفكر فيه غيري رجاء .

الخلاصة :

إن أهم مسألة تواجهنا اليوم هي إقرار السلام بين الدين والعلم وبين الدين والعقل وإزالة الخصام الموجود بينهما وجعلهما يسيران جنباً إلى جنب . فهناك ـ في هذا الخصوص ـ اقتراح بفصل الدين عن النص والنقل ، وإخراج النصوص المتعارضة مع العقل من الدين ، وجعل الدين حياة قلبية . وقد عارضنا نحن هذا الاقتراح وقلنا بإن تصور الدين وهو معزول ومفصول عن النص والنقل إنما هو قلع لفكرة الدين من جذورها ومع ذلك فإننا اعترفنا بضرورة الاهتمام والتفكير بالنصوص التي تعارض العقل والعلم ، وتناولنا في هذا المجال أهم قاعدتين إسلاميتين ، فحسب هاتين القاعدتين . عند وجود مثل هذا التعارض والخلاف ـ ننظر فإذا كان النص صريحا ودلالته واضحة وقطعية نأخذ النص كما هو ، أما إذا كان هناك إبهام وغموض [1] في النص وترددنا حول معناه فإننا نأخذ معطيات العلم ونؤول النص بشكل مواز للعلم .

وانطلاقا من هذا الاساس إذا تناولت الاجتهادات الجديدة الأحكام

---

(١) يقسم الفقهاء النصوص الى قسمين (١) نصوص قطعية الدلالة ونصوص ظنية الدلالة ، وهو يقصد بالابهام والغموض هذا النوع الثاني .
المترجم

العلمية في الدين فإنني أعتقد بأن النزاع بين العلم والدين سوف ينتهي وسوف يكون أحدهما جزءاً متمما للآخر في حياتنا هذه .

لذلك فليس هناك من مبرر لأن يهرب الدين من العلم ويفتش له عن ملاذ يلجأ إليه ، بل عليه أولا أن يصفي بنيته وأن يجمل نفسه ويزينه بالاجتهادات الجديدة وأن يقرب من العلم ، وعليه ثانيا أن يكشف عن جوانب العجز والقصور في العلم وأن يكون نظاماً مكملاً لهذه الجوانب ، أي إن عليه أن يحاول تعيين درجة قدرة الذكاء الانساني وأن يعين حدود العلم .

إن الذين يفتشون للدين عن ساحة أمينة وعن قلاع فولاذية يحمونه فيها من العلم وينقذونه هم الذين يخطئون في قياس الذكاء الإنساني وفي سعة وحدود العلم ويبالغون فيهما كثيراً ، لذلك فهم يخشون من الوجود بجواره ومن الوجود في ساحة مشتركة معه ، بل يفضلون الابتعاد عنه وعدم مقابلته وذلك خشية الوقوع في نزاع معه والهزيمة أمامه .

ولكن هذه النظرة خاطئة تماماً ، فإذا تناولنا علم القرن العشرين بالتدقيق والبحث كعلماء منصفين نرى أن ساحة العلم ليست بهذه السعة كما يظن وليس هناك من عداء أو خصام بين العلم والدين كما يزعم ، بل على العكس فانهما متقاربان وصديقان إلى درجة لا تصدق .

ولأجل رؤية هذه الحقيقة ـ يجب معرفة التغير الجذري الذي أصاب مفهوم العلم في زماننا هذا ، فقد تغير هذا المفهوم عن المفهوم الذي كان سائداً في القرن السابع عشر والثاني عشر بل حتى في القرن الماضي ، فحسب هذا المفهوم القديم الذي جاءنا من عصر الفلاسفة اليونانيين القدماء كان معنى العلم هو « المعرفة المطلقة Connaissance absolue » للأشياء وللطبيعة ، وكان تعبير « العلم » يأتي

بمعنى المعرفة القطعية الثابتة والمطردة .. وهذا المفهوم الذي دام منذ عهد الفلاسفة اليونانيين القدماء سرى بشكل أو بآخر حتى إلى علماء الكلام عندنا فهم يقولون بإن « حقيقة الأشياء ثابتة والعلم بها متحققة »° بينما تبين اليوم أنه ليست هناك حقيقة ثابتة وليس في الإمكان ادراكها ادراكاً مطلقاً وكلياً فكل حقيقـة يسعى لمعرفتها الإنسان حقيقة نسبية كنسبية علم الإنسان وكنسبية كل موجود فانٍ في هذا العالم ، وعقل الإنسان عاجز في هذه المجالات . أن وثوق عقل الإنسان من حين لآخر لبعض الحقائق في محاولته الأزلية لكشف أسرار الأشياء وأسرار الكون يشبه استراحة المسافر من حين لآخر ـ لالتقاط انفاسه ـ اثناء سفره الطويـل . فكل شيء وقتي وعابر ، نسبي وفانٍ ، إن الحقائق التي كنا لا نشك في صحتها بالامس أصبحت بـاطلة اليوم ، والـذي نحسبه بـاطلاً اليـوم قد يكـون حقاً في الغـد القريب .

هذا هو الشيء الذي لم يكن معروفاً ولا مقبولاً في السابق ، فقد كان ينظر إلى العلم طيلة العصور السابقة باعتباره نشاطاً ذهنيا لا تعرف ساحته ولا موضوعه حدوداً ، نشاطاً ذهنياً يمتد إلى اللا نهاية وإنه مـا من مجال لا يستـطيع العقـل الإنساني النفوذ اليه ، وإن المجاهيل جميعها محكوم عليها بالظهـور والانكشاف أمام قدرة الذكاء الإنساني .

إن العلم الذي عرض بهذا الشكل المزعوم وخاصة في القرن الماضي بدأ وكأنه طفل مدلل يهاجم الدين ويهاجم العقائد التي تشكل أسسه ، ولم ير بأساً من اعتبار جميع هذه العقائد المملوءة بالأسرار أموراً خرافية ولم يكن أمام الدين لكي يعيش مطمئناً وهو يواجه مثل هذا المفهوم السائب للعلم سوى البحث عن قلعة

○ « العقائد النسفية » .

لا يصل إليها أذى العلم واعتداؤه ولا يتواجه فيها معه ، وهكذا فإن إخراج النصوص المتعارضة ظاهرياً مع العلم من الدين ، وجعله حياةً داخلية ونفسية قد تولد من هذه الخشية ومن هذه الرغبة .

ولكن مفهوم العلم ـ كما قلنا سابقاً ـ قد تغير اليوم وتقدم كثيراً عن الماضي ، فليس الذكاء اليوم مقدرة لا نهائية للكشف ، وليس العلم فعالية ذهنية غير محدودة ، كما لم يعد العلم معرفة مطلقة قطعية وثابتة . لقد تجاوز العلم مرحلة الطفولة ومرحلة الشباب الطائش الساذج ، واكتسب حنكة ووقار الناضجين واكتسب معرفة محدودة .

إن العلم الذي هو نشاط الذكاء قد وجد طريقه الصحيح وطريقته الصحيحة بعد جهاد وبحث شاق ومرهق منذ عهد الفلسفة اليونانية القديمة ، وهذه الطريقة هي التجربة والمشاهدة والمقايسة . والعلم الحديث يستند على التجربة والمشاهدة والمقايسة . صحيح إنه لا بد من تصنيف وتجريد وتفسير النتائج المستحصلة من التجربة والمشاهدة والمقايسة ، وهذه عملية ذهنية كثيراً ما تساعد على الارتجال والسطحية ، ولكن العلم اليوم ينجز ويعمل كل هذه دون اعطاء المجال للسطحية وللارتجال وبشكل مطابق لأصول التجربة .

من المؤكد أن العلم الحديث باتباعه هذا الأسلوب الحديث للبحث قد وفق إلى تأمين فوائد كثيرة وسجل تقدماً كبيراً ومكتشفات مدهشة . إن الفائدة الكبرى التي حصل عليها العلم باتباعه طريق التجربة والمشاهدة والمقايسة هي الوصول إلى الحقيقة التي يريدها مباشرة دون ما حيرة أو ضلال . كان العلم قديما كالشخص المغرور ينظر دائماً من فوق ، ولكنه لم يكن في استطاعته التأكد من نتائج بحثه ، بينما اصبح اليوم بفضل طريقته التجريبية يعلم إلى أين يسير وإلى

أين يتجه ، ويفرض النتائج التي يتوصل إليها على العام وعلى الخاص . . على الجميع . إن كل ذكاء ينحني الآن أمام معطيات العلم ويتقبلها كحقائق ، ذلك لأن الجميع يعلمون بأن معطيات العلم ونتائجه حصيلة التجربة

ولكن العلم مقابل هذا الربح خسر أشياءً كثيرة بالنسبة للسابق فمقابل القطعية التي اكتسبها العلم بفضل الطريقة التجريبية تحددت ساحته من ناحية السعة ومن ناحية العمق كما أوضحنا أعلاه . أما كيف وبأي شكل تحدد العلم وما هي النتائج التي تولدت . فقد شرحناها في القسم الأول من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

الصدف ونشوء العلم الحديث :

عاشت الإنسانية طيلة القرون الوسطى في الشرق وفي الغرب منقسمة عادة إلى مسلمين ومسيحيين ، ومع أنهما اجتمعا تحت رايتين مختلفتين إلا أن كلا منهما نظر إلى الكون من نافذة حرم المعبد ، واستلهم طريقه في الحياة وقيمه من مثل الإيمان بالله ، وربط جميع آماله وإمكانياته بهذا الإيمان . . . قاتل في سبيله وضحى بحياته من أجله . ولكن وقوع بعض الحوادث وبعض الصدف التي بدت لأول وهلة غير مهمة وغير خطيرة ـ كانت كافية لقلب نظام هذه الحياة في مجتمعات القرون الوسطى رأسا على عقب ، فالإنسان ـ دون أن يشعر ـ ما هو إلا لعبة بيد قوة غير مرئية لا تقاوم ولا يمكن الوقوف في وجهها .

سرت العلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية ـ التي لمعت أولا في العراق ثم في الأندلس ـ في العصور الوسطى من جنوب فرنسا وصقلية الإيطالية إلى أواسط أوروبا شيئاً فشيئاً . وبدأت الجامعات الغربية السكولاستيكية[1] تدرس ابن سينا[2] وابن رشد[3] وتتعرف عليهما .

---

(١) هي الجامعات المرتبطة تماما بالشكل والمظهر ، بعيدة عن المشاهدة والتماس المباشر مع الحياة غارقة في تأملاتها .

(٢) هو أبو علي حسين بن عبد الله ابن سينا رئيس العلماء في الشرق والملقب بأبي الحكماء في الغرب ومن أشهر الأعلام في دنيا الإسلام وفي تاريخ الفلسفة والفكر (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) .

هذه الحادثة كانت بمثابة العلامة أو الأشارة الأولى لثورة غير متوقعة اطلاقا في العالم الغربي ، فقد ظهرت الشكوك ـ بل الارتداد ـ لأول مرة حول العقائد المسيحية وظهرت أولى الهزات في صرح الكنيسة الكاثوليكية ، وبدت الشُّبه وعلامات الاستفهام لأول مرة حول سلطة البابا . . هذه السلطة التي لا تقبل الجدال أو الشك . ثم أعقبت هذه البوادر ردود فعل عنيفة فقد تأسست محاكم التفتيش ودامت عدة عصور قتلت خلالها مئات الآلاف من الأنفس . ولكن سياسة الشدة وسياسة التنكيل لم تستطع أن توقف هذه الثورة المندلعة التي استمرت وسارت في طريقها ، وكانت النتيجة أن تمزقت وحدة العقيدة في العالم الغربي وظهرت الكنيسة البروتستانتيه أمام الكنيسة الكاثوليكية .

لم تقف هذه الأزمة وهذه الثورة عند هذا الحد ولم تكتف بهذا القدر فقد وقعت حوادث أخرى بدت كذلك في أول الأمر لا تحمل خطورة أو أهمية ، فقد ادعى شخص بولوني يدعى كوبرنيك (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) بأن الارض ليست سوى تابع من التوابع الموجودة في المنظومة الشمسية . وقد ردت الكنيسة هذا الادعاء بكل شدة واتهمته بوضع أفكار تخالف النصوص الدينية . وما لبث أن أعقبه إيطالي يدعى غاليلو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) ادعى بأن الارض ليست مركز للكون كما كان يظن سابقا بل الشمس هي المركز وأن الأرض مع السيارات الأخرى تدور كل منها حول محورها وحول الشمس في آن واحد . في هذه المرة

---

(٣) هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد : من أشهر الأعلام في تاريخ الفكر الانساني ومفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية . ولد في قرطبة سنة ٥١٤ هجرية أي في بداية القرن الثاني عشر للميلاد . وقد منعت كتبه من التدريس في جامعة باريس سنة ١١٩٨ وحرمت قراءتها من قبل البابوية كذلك وذلك على أساس أنها تدفع المسيحيين إلى الضلالة . ومع ذلك فقد تداولت الأيدي كتبه سراً وعوقب كل من ضبطت كتبه عنده .

تحركت محكمة التفتيش وكانت النتيجة أن اضطر غاليلو العجوز إلى الركوع على ركبتيه أمام الحكام معلناً توبته .

بينما كانت هذه الاكتشافات تتم حول السماء كانت هنالك اكتشافات أخرى تتعاقب حول الأرض ، فإن إيطالياً آخر يدعى ماركو بولو (١٢٥٤ ـ ١٣٢٣) كشف لأوروبا ديار آسيا البعيدة ، اما كريستوف كولومبس (١٤٥١ ـ ١٥٠٤) فقد اكتشف أمريكا . وكشف فاسكو دي غاما (١٤٦٩ ـ ١٥٢٤) الطرق البحرية المؤدية إلى الهند ـ وأخيراً اكتشف شخص ألماني يدعى كوتنبرغ (١٣٩٧ ـ ١٤٦٨) المطبعة التي قذفت هذه الاكتشافات ونشرتها في جميع أنحاء المعمورة .

وهكذا فإن بضع حوادث أو بضع مصادفات ظهرت بجهود بعض الأشخاص كانت كافية لإيقاظ عالم الإيمان ـ الذي وقع تعباً من الهزات التي تعاقبت عليه طيلة قرون عديدة ـ من سباته العميق . لقد انطوى عهد وبدأ عهد آخر جديد ، فقد أضيف إلى نظام الفكر الذي وُرث عن الأغريق القدماء والذي كان يستند على التعقل (Reflexion وعلى التفحص (introspection)وعلى التأمل (Comtemplation) طرز وأصول أُخر جديدة وهي التدقيق المستند على المشاهدة المباشرة للأشياء والتجربة وازدادت أهمية بمرور الزمن ومنها ولدت مجموعة المعارف التي نطلق عليها اسم العلم Science

سيطرة العلم على الإنسان :

إن العلم الحديث الذي توسع بسرعة في مدة قصيرة اكتسب سلطة كبيرة وحاكمية قطعية على الإنسان إلى درجة أنه أصبح منذ عهد النهضة أو على الأصح منذ ثلاثة أجيال الصنم الوحيد تقريباً بالنسبة إليه ، فلم يبق شيء خارج عن

ساحة نفوذه ولم تبق هناك حقيقة خارجة عن قدرته ، لقد أصبح العلم كافياً لنفسه وللانسان ، فبفضل التقنية « التكنولوجيه » التي هي وسائل العلم ووسائطه في الحركة وفي التأثير على الحياة العلمية ـ اكتسب العلم نفوذاً واعتباراً عظيمين ، وبمرور الزمن ازداد هذا النفوذ وهذا الاعتبار .

غير أن بموازلة هذا كان النظام المعنوي يتلاشى داخل نفس الانسان ذلك لأن الإمكانيات التي هيأها العلم جعلت إرادة الانسان تتجه بأجمعها إلى النعم المادية الموجودة على سطح الأرض وإلى الأمور الاقتصادية ، أصبح الربح والكسب الغاية الوحيدة للإنسان وأصبحت القوة والإمكانية الإقتصادية هي المرحلة الأخيرة التي تمتد إليها إرادة الانسان .

والخلاصة إن الإنسان الذي كان ينظر سابقاً إلى الحياة من حرم المعبد والذي كان يُفتش عن النور لدرب حياته من الدين ومن نور العقائد ، أصبح هذا الانسان ينظر إلى الحياة من برج الرصد وينظر إلى المواضيع الدينية نظرة احتقار واستصغار وليس في هذا موضع دهشة أو استغراب فإن الحياة الفكرية للإنسان تشبه المحيطات فلها ـ كما للمحيطات ـ مد وجزروتستطيع أن تسمي هذا أيها القارىء العزيز تطوراً ولكن مع الإنتباه إلى أن التطور ليس خطاً مستقيماً يتجه دائماً إلى أعلى ، بل هو على العكس خط متعرج لا نهائي مكون من صعود ونزول وعلو وهبوط . والانسان الذي يظن أنه يصعد دائما يكون في الأغلب ضائعاً في طريقه هذا ـ المكون من تعاريج ومن صعود ونزول ـ وهو لا يدري ، فهو يحطم اليوم الصنم الذي كان يعبده بالأمس . وهذا أيضا شيء طبيعي واعتيادي ففي الحياة البشرية يولّد الإفراط والتفريط أحدهما الآخر ، ونحن إذا أمعنا النظر نرى أن التاريخ ما هو إلا عبارة عن قصة أو رواية طويلة لفعل وردود فعل للإفراط

والتفريط . ولكن الانتقال من أحد ردود فعل الإفراط أو التفريط إلى أخرى سهل والمسافة بينهما قصيرة جداً بحيث إن الجيل الموجود لا يشعر بهذا الانتقال ولا يحس بالاضطرابات والآلام التي تخلّفها مثل هذه الحركات والتقلات في الأرواح إلا الأجيال التي تأتي بعد مدة طويلة .

النزاع بين العلم والدين :

إن العلم الحديث الذي ولد وسط حركات وانتفاضات عصر النهضة والذي تغذى ونما بمذهب « الراسيونالزم Rationalisme [1] للقرن الثامن عشر لم يدخل في نزاع وفي صراع مع الفلسفة القديمة فحسب بل مع الإيمان كذلك . مع أن العلم الصحيح والدين الصحيح لا يتضادان ولا ينفي أحدهما الآخر بل على العكس يتمم أحدهما الآخر لأن أحدهما يخاطب الذكاء والآخر يخاطب الوجدان لذلك فإن من الممكن أن يسيرا جنباً إلى جنب تربط بينهما الصداقة ، وأكبر دليل على هذا هو أنهما اجتمعا في السابق ويجتمعان حالياً معا عند كثير من الأفراد .

والمادة ليس لها كيان خاص قائم بذاته ، فإن وجودها نسبي تماماً لأنها تتعلق بكيفية إحساسنا بها بواسطة حواسنا ، وبالمعاني التي نضيفها إليها بواسطة عقولنا .

ويوجد في الكون ، خارج نطاق المادة « جوهر » لامادي immateriel

---

(١) الراسيونالزم : هو المذهب الفلسفي الذي ينكر الوحي والذي يحاول تفسير كل شيء بواسطة العقل وينكر الأمور التي لا يستطيع العقل بلوغها او ادراكها .

وهذا الجوهر هو الوجود الأصلي الخالد ، أي هو « الروح » ومعلوماتنا المادية التي نشأت أصلا من الروح - هي أيضا نسبية ولذلك فهي عرضة للتغير باستمرار ، أما العلم الحقيقي المطلق فهو العلم المتعلق بالروح وبعالم المعاني والمثل Le monde des ideals

إن القول بأن الحياة - وكذلك الكون - يرجع كلها إلى المادة ، وأنها وقد تكونت عن طريق التحول من المادة إنما يعني وضع الصدفة العمياء موضع الخالق ، وأفلاطون يرى أن الناظر إلى الطبيعة بعيون التفحص لا بد أن يحكم على هذه النظرية بالضحالة والسخف ، وإن أعمق المعاني وأكثرها مدعاة إلى التفكير هو التناسق البديع الذي نلاحظه في نظام هذا الكون . ان جمال الطبيعة ولذة الخير وخوارق العقل واتساق نظام الخليقة ، وأداء كل عضو من أعضائنا وظائفه بدقه . . . الخ . . . كل هذه الأمور لا يمكن أن تكون نتيجة للصدفة العمياء ولا امتداداً للمادة الصماء . إن الطبيعة بما تحوي من فن رفيع محير في كل ذرة من ذراتها إنما تكذب بنفسها احتمال الصدفة .

إن كل ما كان نتيجة للفن والذكاء لا بد أن يكون نتيجة لعلة مدركة Cause intelligente فطاحونة الماء والعربة الزراعية الخشبية ، كل منهما يدل على صانع مفكر عمل تحت خطة معينة .

إذا فكرت في هذه الحقيقة ثم حلقت ببصرك في هذا الكون وفي هذه الحياة اللذين هما نتيجة لصنعة مبدع ولفن رفيع - فإن الاعتقاد بأنهما تكونا من نفسهما ونتيجة للصدفة ولتحول المادة وتطورها يستحيل إلا على الشخص الموغل في الإنكار .

والخلاصة إن هذا الكون وهذه المخلوقات بما فيها من نظام دقيق يعلن

بنفسه عن وجود صانع أزلي مدرك ، وهذا الصانع الفنان والمهندس الرائع هو « الله » فهو خالق المادة وخالق الذرات التي تتألف منها المادة وواضع قانون حركتها والتحامها مع بعضها مكونة الجزيئات ، كل هذا تحت خطة معينة ونحو غاية معينة Cause Finle

وفي ظل الأديان السماوية التي جاءت بعد أفلاطون . . وخاصة في ظل الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية الرائعة ـ انزوت الفلسفة المادية القديمة حتى لم يعد يسمع لها صوت . وقد دام هذا الانزواء في الغرب حتى عصر النهضة .

عصر النهضة وحركة العلم الحديثة :ـ

إن عصر النهضة في الغرب هو العصر الذي بدأ فيه العلم والفلسفة والأدب والفن بالإنتفاض ، وهو العصر الذي بدأ فيه الأوروبيون بالاتصال مع عالم ومدينة اليونان القديمة بقراءة آثار كبار الفلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو .

بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ساد جهل كثيف على أوروبا طيلة القرون الوسطى ، وضاعت تقريبا آثار العلم والفلسفة والفن اليوناني القديم ولكن العلم الحديث اتخذ طريقه وهو في المهد بترجيح الكمية على الكيفية وترجيح المادة على الروح ـ ترك الإنسان واتجه إلى الأشياء وإلى المادة الصماء وكلما تقدم العلم في هذا الطريق وكلما سجل نجاحاً باهراً في عالم المادة الصماء كلما انضوى شيئاً فشيئا تحت حاكمية المادة الوضعية « بوز تفزم . Positivism materialiste

المادية الوضعية :

يرى هذا المذهب الفلسفي أن عقيدة وجود قدرة خالقة ما هي إلا محصول

خيال وأوهام وأنها فرضية أصبحت في ذمة التاريخ ، فالحياة والكون مؤلفة فقط من المادة التي تتكون من جزيئات صغيرة وأن المادة قد أوجدت نفسها بواسطة بعض القوانين الميكانيكية الضرورية وهي تدير نفسها بواسطة نفس هذه القوانين ، وكلنا مظاهر لأجزاء هذه المادة الأزلية والكونية . كلنا وجدنا من التراب وغدا نرجع ترابا ، أما انتظار حياة أخرى بعد هذه الحياة فهو أمل ضائع ، ذلك لأن هذا الأمر لم يشاهد ولم يبرهن عليه بالتجارب . أما الروح وسائر ملكاتنا الروحية فهي مظاهر لنشاط أعضائنا التي تشكل وجودنا المادي . وكما يفرز الكبد مادة الصفراء يفرز دماغنا الأفكار والأحاسيس ، أما إضفاء معانٍ أخرى على ملكاتنا وعلى قابلياتنا الروحية والمعنوية فغير صحيح .

هذه هي خلاصة ما تزعمه الأفكار المادية وتقدمه باسم العلم !

قيمة المادية الوضعية :

إن قيمة أي مذهب فلسفي حول الحياة وحول المجتمع تقاس بنتائجه الإنسانية والأخلاقية وبثمراته في المحيط الاجتماعي ، والمادية الوضعية التي تدعي أنها تتكلم باسم العلم ـ والتي هي في الحقيقة عبارة عن فرضيات وتخمينات ـ لا تعلم أنها تطمس الحياة الإنسانية في الوحل وكيف أنها تقود المجتمع إلى مآزق خطرة .

لنفكر ولنتأمل : إذا كان الانسان وجد من العدم ليكون مصيره الضياع آخر الأمر في وادي العدم ، وإذا لم تكن هناك وراء هذه الحياة أية حقيقة سوى الفناء المظلم ، وإذا لم تكن هناك عدالة أخرى صافية ومثالية غير العدالة البشرية الناقصة والعرجاء بل والقبيحة في أكثر الأحيان وإذا لم يعاقب الأشرار على

شرورهم ولم يكافأ الأخيار لمحاسنهم ، وإذا كان نفس النهاية القاسية ونفس العدم المظلم ينتظر كلا منهما فلم الكفاح إذن من أجل الحق ومن أجل الخير ومن أجل الانسانية ؟ ولم تحمل الآلام والمصاعب في هذا السبيل ؟ ماذا تنفع إذن الفضيلة والاستقامة والشرف والرحمة والشجاعة وسائر الأخلاق الفاضلة والسجايا العالية ؟ لِمَ أقلص رغباتي وأكبح زمام شهواتي وأمنع نفسي من اقتراف الجرائم ؟ لِمَ أتحمل الآلام أو أتعرض للمخاطر من أجل الآخرين ؟ ما دام لا يوجد هناك سوى قوة عمياء وسوى مادة صماء لا تحس ولا تشعر وما دامت الصدفة العمياء الخالية من الأحاسيس والمشاعر تسيطر علينا جميعا بقوة لا تعرف الرحمة إذن فليس الخير والعدالة وليست الفضيلة الأخلاقية ولا التفوق والأصالة إلا كذب وتمويه . . . إذن فليس الواجب هو غاية الحياة بل اللهو والجري وراء الملذات ، وكل جريمة وجناية تكون مباحة من أجل الوصول إلى هذه الغاية ، فإذا كنت قادراً على العيش وعلى اللهو فاسرق وانهب واقتل وحطم . كذلك فإن من العبث البحث عن أمل وعن سلوى للمحرومين وللبؤساء فليس هناك للذين غدر بهم الحظ او حكمت عليهم الصدف الأليمة من يوم سعيد أو من عدالة سامية ينتظرونها أو يأملون بها لذلك فليس هناك من طريق سوى النهب والسلب وسوى الانخراط في سلك المترفين اللاهين .

المادية الوضعية وأزمات عصرنا :

إلى هذا الطريق تقود الفلسفة المادية الوضعية المجتمع والحياة . وهذا هو السبب والمنبع للأزمات السوداء لعصرنا ، فالكل يعرف أن المجتمعات الحالية تئنُّ من الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأزمات التي أظهرتها الحرب العالمية الأولى إلى الوجود تضاعفت بالحرب العالمية الثانية وهي مستمرة

حتى الآن دون انقطاع تجرع الإنسانية الآلام والمحن وكذلك يعلم بأن كل الحكومات في البلدان المختلفة تسعى إلى إزالة مثل هذه الأزمات وإلى التخفيف من حدتها وإلى إصلاح حياتها المضطربة حتى إن تعبير « النهضة الاقتصادية » أصبح تعبيرا شائعا و« موضة » خاصة بالبلدان المتأخرة ، ومع هذا فإن الأزمات لا تزال موجودة ، بل هي في ازدياد مستمر ، وهي ستزداد حتما ولسوف لن تنتهي حتى ولو غرقت الأمم حتى أذقانها في الرفاه الاقتصادي وفي الترف ، ذلك لأن أصل البلاء في هذه الأزمات ليس سياسياً وليس اقتصادياً بل هو معنوي وأخلاقي ، فالذي ينقص الانسان المتمدن اليوم ليس هو الترف أو التسهيلات المادية ولا الثروة ، ولكن تنقصه السكينة وينقصه الإطمئنان المعنوي والسعادة . إنسان اليوم يحتاج إلى هذا فقط ، إلى هذه النعمة التي تعتبر رأس النعم في هذه الحياة ، هذه هي النعمة التي يتحسر عليها الانسان المتمدن دون أن يشعر . أما هذه السكينة وهذا الإطمئنان المعنوي فلا يؤمنها شيء - مهما قال القائلون - إلا التربية المعنوية والمحيط الروحي ، أي إن ما ينقص هذا الانسان الشقي اليوم هو الناحية المعنوية والإيمان والمثل . لقد ترك الانسان المتمدن نفسه إلى تيار المادية الوضعية المفسدة التي تزعم أنها تتكلم بإسم العلم ، مع أن فلسفة هذا المذهب في الحياة وفي المجتمع هي العدمية واللامبالاة . فكما يرى أن الوجود وجود مادي بحت فكذلك يرى أن المنافع والقيم مادية صرفه . مع أننا نعلم من تجاربنا الشخصية من تجاربنا اليومية بأن الثروة والمنافع المادية غير كافية للسعادة . الثروة لا تستطيع أن تسعد الانسان لأنه ليس عبارة عن آله مؤلفة من لحم وعظم ، فهو يحمل روحاً وعقلاً يفكر في غاية الحياة ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب أي إنه بكلمة واحدة مخلوق معنوي .

الخلاصة إن أزمة عصرنا هي في الحقيقة أزمة فقر في الإيمان وفي المثل أزمة

عميقـة معنويـة والانسان المتمـدن الـذي وقـع تعبـا من الجـري وراء التـرف والكماليات يفتش اليوم عن الإيمان وعن المثل التي ضيعها وتذوب نفسه حسرة وشوقاً إليها . ومن الغريب أنه بالرغم من كون الأزمة الحقيقية أزمة معنوية فإنها أقل الأزمات عناية من جانب أكثر الحكومات . بل إن بعض الحكومات لا تعيرها أهمية على الإطلاق . ولا أدري أيحسبون أن جميع الأمور ستتحسن وتدخل إلى نصابها إن أمنوا لأفراد الشعب جميع احتياجاتهم المادية والاقتصادية ؟! إن جميع الوقائع والتجارب تكذب هذا الظن . . يجب أن لا يغرب عن البال أن الانسان هو المخلوق الوحيد العجيب الذي يأكل دون أن يجوع ويشرب دون ان يعطش وهو لهذا أكثر الحيوانات تعطشا وجوعا ونهماً وأقلهم قناعة . وهذه الطينة البشرية تشكل وحدها جوابا كافيا للماديين الوضعيين . يقول هؤلاء بأن الأخلاق يولدها المجتمع فهي ليست من ثمار الفكر السامي أو المثل ، بل هي محصول للعلاقات الاجتماعية للحياة ، فكما ولدت العلاقات الاجتماعيـة للعهود القـديمة سلوك وأخلاق القدماء ، كذلك تولد الفعاليات الحضارية الحاضرة الأخلاق المناسبة لها ، وليس هناك من مجال للخوف أو للخشية من هذا .

ولكن المجتمـع يولـد كذلـك الجرائم والسفـالـة والبؤس وجميـع أنـواع الشرور ، فإذا توقعنا الأخلاق من الفعاليات والمناسبات والعلاقات الاجتماعية وليست من الأفكار ومن المثل فإن من المؤكد أننا سنواجه بدل الأخلاق شهوات حيوانية عارمة .

الشهوات المنطلقة تهلك صاحبها :

مع كون الحاجات البشرية محدودة من ناحية الكمية إلا أنها غير محدودة

من ناحية الكيفية فنحن نعلم من تجاربنا اليومية بأنه ما من حاجة أشبعت إلا تلتها سلسلة من الحاجات الأخرى ، فكل منا يحمل حسب سنه وموضعه آلافاً من الرغبات ويتمنى آلافاً من الأمنيات ويبذل جهده في كل يوم وفي كل لحظة لتحقيق هذه الرغبات والأماني ومع ذلك لا نكف ولا نشبع وهنا يكمن سر الحياة ، فكون الإنسان لا يشبع ولا يكتفي يسوقه دائما إلى العمل وإلى البحث ، ومن هنا يتولد الرقي . ولكن لا بد من الإشارة إلى وجوب عدم الوقوع في أسر الرغبات والأهواء وإلى وجوب السيطرة على زمامها وإلا أصبحنا أشبه بالقطة التي تلعق مبرداً من الحديد تلطخ بقطعة من اللحم نلعق الدماء التي تسيل من ألسنتنا ونحن لا ندري .

أما الوسيلة الوحيدة لتهدئة الرغبات والحاجات فهي التربية المعنوية فالانسان الذي يعيش في رخاء مادي ينقلب - إذا كان محروماً من هذه التربية - إلى ضحية بائسة لرغباته التي لا تعرف الشبع . . . إلى سجين في كنزه الذهبي .

انتصار العلم :

من المعلوم أن العلم والتكنولوجيا - التي هي عبارة عن وسائل تطبيق العلم على المادة - قد سجلا انتصاراتٍ باهرة في مجال المادة الصماء (Matiere in-erte) ومن هذه الانتصارات ولد هذا العالم الآلي الضخم وسيطر الإنسان على الكرة الأرضية . فإنسان عصرنا الحاضر في البلدان المتقدمة قد تخلص من ظروف الحياة الصعبة القاسية التي كان يعانيها الأقدمون . نحن الآن لا نخشى من البرد ومن الحر أو من العواصف والأمطار والثلوج أو من الظلام ، فلدينا اليوم وسائل كثيرة تحمينا من هذه المصائب ، وليالي الشتاء الطويلة يغمرها النور والدفء في هذه الأيام .

لقد انعدمت المسافة تقريبا في هذه الأيام وتقاربت الأمم من بعضها وانتشر العلم واحتل القانون والحق مكان الامتيازات وعدم والمساواة . . ووجد الدواء للأوبئة التي كانت من قبل تزيل المدن والقرى من الوجود ، وحصل الانسان على الأمن ضد كثير من المصائب والفواجع .

ولكن بالرغم من الرقي الكبير في ساحة الفيزياء والتكنولوجيا لم يسجل أي تقدم في ساحة المعنويات بالنسبة للأخلاق والسجايا مع الأسف ، بل لقد تأخر الانسان من هذه الناحية عما كان عليه سابقاً إن انسان اليوم الذي ضحى بمعنوياته وبسكينته النفسية من أجل الثروة المادية ومن أجل الكماليات والترف يتعطش إلى الراحة وإلى السكينة وهو يتقلب بين أنواع من الأزمات .

ومع أنه بفضل العلم والتكنولوجيا الحديثة زادت الثروة والترف إلى حد كبير حتى في البلدان المتخلفة . فتركيا الأمس التي لم يكن فيها سوى مليونير واحد أو مليونيرين تركت مكانها لتركيا اليوم التي لا تستطيع أن تحصى عدد أصحاب الملايين فيها . غير أننا إذا دققنا النظر نجد أن مثل هذه الثروات تسيل من قنوات معينة إلى جهات معينة وتتجمع في أيدٍ معينة أما المساواة والمواطنة فهي كلمات تقال على منابر الخطابة ولا تجد لها مكاناً في القلوب

بجانب ثروات المدن ولياليها المتلألئة نجد العوائل الكثيرة التي تعيش في الظلام ونجد المرضى الذين لا يجدون لهم مكاناً في المستشفيات ونجد الجائعين والبائسين ونجد أحياء العمال في المدن الكبيرة وفي أماكن الصناعة وقد أصبحت منبعاً وعشاً للسفالة المادية والخلقية . أما القمار والفحش والمسكرات وسوء الاستغلال وجميع أنواع السفاهات فقد امتدت حتى إلى القرى توزع سمومها في كل مكان وتجفف منابع الحياة وتمتص طاقات الأجيال الصاعدة ، أما اليأس فهو

يقدم كل يوم ضحايا لا تحصى بحوادث الانتحار . ومن الناحية الأخرى نجد الجرائد والمجلات التي لا هم لها سوى الإثراء وزيادة الصرف والبيع ـ تنشر في كل مكان أقبح دعاية وأسوءها ، إذ تخدر العقول وتقتل الأرواح بأدب الجنس وبأدب الشهوة . وفي بلد متأخر كتركيا يعلم ويرى كل من عنده مسكة من عقل مدى الأضرار التي تلحقها ومدى الشرور التي تنشرها مثل هذه الأساليب الصحفية . ومن المعروف كيف أن مثل هذه الجرائد ـ التي هي من دعاة المادية الوضعية ـ قد سممت هذا الجيل وكيف أنها أصبحت منبعاً للشر والفساد .

من المؤكد وجود نواحٍ جيدة وقوية لمدنية عصرنا الآلية فقد حرر الإنسان نفسه من سيطرة الطبيعة عليه وأصبح هو المسيطر عليها تقريباً ولكن يجب عدم انكار وجود نواحٍ أخرى سببت هبوط الإنسان وابتعاده عن إنسانيته ، وسببت الآلم والاضطراب والسفالة . إننا نقول بأن العلم لو لم يحصر اهتمامه في المادة ولو لم يتجه إليها فقط ولو أنه اتجه إلى الإنسان كذلك لما كانت هذه المدنية المعاصرة مدنية عرجاء ، بل كانت مدنية متوازنة متقدمة قوية في معنوياتها قدر قـوتها في مادياتها .

المادية الوضعية والمدنية المعاصرة :

إن المادية الوضعية ـ باختصار ـ قد غلبت المدنيـة المعاصـرة على أمـرها وفتحت في المجتمعات جراحاً يصعب شفاؤها . وإذا كان هناك شيء مؤكد فهو مرض هذه المدنية المعاصرة فالمرض ظاهر بشكل واضح في الفرد وفي المجتمع وفي العرق (الجنس) وفي العلاقات الدولية . . . أي في جميع مجالات الحياة تقريبا ، والفرد الذي تشكله هذه المدنية لا يستطيع أن يتلائم أو يتكيف مع المحيط ومع

الجو الذي تجبره هذه المدنية على العيش فيه . ذلك لأنه بالرغم من الـرقي في المجالات المادية فإن الفرد لم يرق ذهنياً وروحياً ومعنوياً وخلقياً بتلك النسبة ، بل على العكس فبسبب أنواع كثيرة من الإفراط وبسبب طـراز الحياة الخـالية من المسؤولية والخالية من هدف وغاية ، وبسبب التهالك على الترف وعلى الراحة وعلى الكماليات ضعفت قوة الأعصاب في الفرد وضعفت قابلية مقاومته وصموده حتى يمكن القول بأن الإنسانية تجابه الآن في الأمم المتقدمة خطر الهبوط في الذكاء وخطر النقص العقلي وجهاً لوجه . إن كثيراً من الأفراد الذين يعيشون حالياً في أوروبا وفي امريكا غير طبيعيين وفاسدين خلقيا ونفسيا بدرجة كبيرة .

ليس القمار والمشروبات الكحولية فقط هي التي تفسد الجيل الناشىء بل إن سخافة وضحالة برامج المدارس والراديو والسينما تلعب دوراً كبيـراً في هذا المجال لاحظوا برامج المدارس ، فمنذ عهد السلطان عبد الحميد نراها بعيدة جداً عن الموضوعية وعن الحقائق العلمية وعن التربية الخلقية فهي تقوم عـلى الأغلب بوظيفة المدح لرجال العهد الحاكم في كل دور .

إن شهوة الربح والثروة وتيار اللهو والسفـاهة تجفف في الإنسـان الحالي ضميره الإنساني ، وإن عدم وجود إحساس الشرف والكـرامة ومـا أنتجه من الخداع والرياء وسائر الموبقات جعل كثيراً من الناس الحـاليين أوطـأ دركة من الحيوان ، وليس من عجب أو غرابة في هذا فقد أصبح الكذب والخداع اليوم علماً يطلقون عليه « الدعاية » وهي تستعمل على الأكثر من جانب الحكومات كوسيلة من وسائل الخداع والتضليل . أما وزارات الدعاية التي تشكلت في بعض الدول في سنوات ما بين الحربين فقد كانت لطخة في جبين الإنسانية .

أي إن المادية الوضعية بتقليلها من قيمة الخلق في نظر الإنسان وضعت

المدنية المعاصرة في مأزق حرج ، فالفضيلة والتضحية والإيثار أصبحت لا تعني شيئاً ذا أهمية بنظر الانسان المعاصر ، وقيمة الانسان أصبحت تقاس بما عنده من مال وجاه . . ولكن هـذا السير يضـاد العلم والفكر الـذي يحتاج إلى الإيثـار والتضحيـة والبذل ،! إذ لا يمكن أن تسـير الأنانيـة والتهالـك على المصـالـح الشخصية مع الحياة العلمية والفكرية ، لذلك فمن المتوقع أن تهبط المدنية من هذه الناحية كذلك . نعم لا يزال هناك علماء وفلاسفة وشخصيات ممتازة ولكن إلى متى يستطيع الممتازون والمتفوقون الصمود داخـل مجتمع فسـد وتعفن أكثر اجزائه .

البلدان المقلِّده والبلدان المقلَّده :

من الملاحظ أن النتائج الأخلاقية والإنسانية للمدنية الحديثة ليست سواء في جميع البلدان ، لذلك فإنه من المناسب أن نقسـم العالم المتمدن إلى بلدان مقلَّده وبلدان مقلِّده .

أما الأولى فهي البلدان الغربية التي سارت في طريق العلوم المجردة والفكر والفن منذ عهد النهضة وورثت المدنية الإغريقية والرومانية القديمة . أما البلدان المقلِّده فهي البلدان التي بدأت منذ خمسين أو مئة سنة بالدوران كالفراشة بـلا تفكير حول شعلة المدنية الغـربية مـدفوعـة بعامـل الشعور بـالنقص وبعامـل الإعجاب الشديد .

في البلدان المقلَّده اشترك كل فرد من كل صنف وطبقـة في بناء المـدنية المعاصرة طيلة أكثر من أربعة قرون بكل جهده وتعب وتحمل المشاق الكثيرة وكان كمن يحفر بئراً بإبرة ، لذلك نرى أن الفرد الغربي يتمسك بمدنيته بـالرغم من

وجود نواحٍ ضارة فيها ، ذلك لأنها ـ في آخر الأمر ـ من إنتاجه وثمار جهده . ثم إن هناك في الغرب مؤسسات إنسانية وعلمية ودينية كثيرة تستطيع أن تواجه النواحي الضارة في هذه المدنيـة ، وتأتي الكنـائس والجامعـات في مقدمـة هذه المؤسسات أما البلدان المقلّده فلكون المدنية الحديثة غير نابعة من وجدان ومن تاريخ شعوبها كان من الطبيعي أن تبقى غريبة عليها وأن تكون آثارها التخريبية في عالم أخلاقها أكثر وأشد .

ثم إن البلدان المقلده بسبب إعجابها الشديد وبسبب شعورها بالنقص تجاه هذه المدنية لا تهتم بتحطيم مؤسساتها التاريخية التي تقوم كسد أمام هذه الشرور ، وتترك الإنسان أعزلا أمام رغباته المادية والحسية فتصل قوة تخريب وهدم المادية الوضعية إلى الذروة .

أجل إن من الممكن أن يتعامى الماديون الوضعيون عن الفروق بين هذين الصنفين من البلدان وأن ينكروا الحقائق التي تبرز أمام جميع الأعين وأن يمثلوا دور المتفائلين . إن التفاؤل في كثير من الأحيان يكون نتيجة الجبن من مواجهة الحقائق المـرة الأليمة ، فـالإنسان يميـل إلى تجنب رؤية الشـرور وتجنب القول بمـرض المرضى ، ذلك لأن عدم رؤية الشرور والمفاسد يعفي ويغني عن الكفاح ضدها ، وهذا نوع من الكسـل ، ولكن الكسل ليس حلاً لإزالة الشرور ولمداواة الجروح .

إذا كنا نريد حقاً إزالة هذه الشرور فيجب الاعتراف بوجودهـا أولا ثم دراستها ومعرفة مصادرها ثم العمل والبحث عن حلول لإزالتها ومعالجتها .

المدنية المعاصرة مريضة :

يجب الإعتـراف أولاً بأن المـدنية المعـاصرة مـريضة وبعيـدة عن إجابـة

الضروريات الروحية للإنسانية وهذا هو منشأ الأزمات والعلل الاجتماعية الحالية .

تستطيعون أن تعترضوا قائلين : هل كان الانسان أفضل سابقا ؟ هل كانت المجتمعات السابقة جنات وارفة الظلال ؟ كيف نسينا هكذا بسرعة الجرائم والمآسي التاريخية ؟ أليس معنى اتهام المدنية المعاصرة دفاع عن وحشية وسفالة العهود السابقة ؟ . . . نعم إن من حقك أيها القارىء أن تقول هذا وأن تعترض ، وأنا أعلم كذلك أن ماضينا لم يكن أسعد من حاضرنا فقد شقت الإنسانية وتألمت دائما ، ولكني أتساءل • أنريد أن تزداد هذه الآلام أم أن تهدأ ؟ بما اننا نريد لهذه الآلام أن تهدأ ونريد للبشرية أن تبتسم لذلك فإننا نقول بأن المدنية المعاصرة لم تستطع أن تسكن الآلام ولم تستطع أن تسعد الإنسانية والعلم الذي نجح وتفوق في عالم المادة تأخر كثيرا في مجال الحياة . إن علاقات الأفراد ببعضهم وطراز معاملة أفراد الشعب من قبل الحكومات والحياة الدولية والعلاقات الدولية ليست أكثر تقدما أو إنسانية من السابق . إن المدنية الحديثة التي تدعي أنها تستند على الـ « هيومانزم » أي على الإنسانية تبتعد أميالاً وفراسخ عن الإنسانية دون أن تدري .

سبب المرض :

يجب التفتيش عن هذا السبب في الخطوة الخاطئة التي خطتها المدنية المعاصرة عند نشأتها . هذه الخطوة الخاطئة ـ نقولها مرة أخرى ـ ضحت بالكيفية من أجل الكمية ، وضحت بالقيم المعنوية من أجل المادة . لم تأخذ المدنية المعاصرة سوى الجانب المادي من هذه الحياة المؤلفة من جوانب مادية وروحية ، اهتمت فقط بالمادة ولهذا وقعت في أحضان المادية الوضعية ، من الواضح أن

الإنسان ليس جسماً ومادة فقط فهو روح وشعور وإحساس كذلك . هذه هي الحقيقة التي أهملتها المدنية الحديثة فتركت الإنسان وصرفت همها لمعرفة المادة ورغبت أن تعرف كل شيء في هذه الدنيا وفي هذا الكون اللانهائي ولم تستثنِ من هذا سوى الحياة وسوى قلب الإنسان ـ وباختصار إن المدنية الحديثة أهملت قبل كل شيء حقيقة أوحكمة : « إعرف نفسك ! »

إن العلم الذي ولد مع عصر النهضة حصر مجال تدقيقه وبحثه في المادة وفي الحصول على النعم الدنيوية وجلب التكنيك الذي تطور وقدّم الراحةِ والثروة وكل إمكانيات وتسهيلات الحياة ولكنه أهمل في هذه الأثناء الإنسان والميول الروحية له . تعلم الإنسان الحديث المادة قبل أن يتعلم أو يفهم نفسه وفضل علوم المادة على علوم الحياة مع أن علوم الحياة كانت أهم للانسان من علوم المادة وكانت كذلك متخلفة عنها بمراحل عديدة . وهكذا أوجد الإنسان بنفسه عالما ملائما للتقدم المادي فقط ولكنه بقى غريباً في هذا العالم الذي صنعه بيده .

إن علاقات الأفراد مع بعضهم وشروط المعيشة وطرازها والحكومات وأصول إدارتها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه قبل عدة عصور ، إذ لا تزال السياسة الميكافيلية حاكمة حتى الآن على الحكام وعلى الحكومات مهما تعدّدت أسماؤها وصفاتها ، ولا يزال القانون الروماني هو القانون المحتذى حتى في ارقى البلدان الغربية ، ومع أن الانسان تخلص من العبودية لإنسان آخر بعد جهود عهود كثيرة إلا أنه أصبح الآن عبداً للآلة التي صنعها بنفسه ، ثم إن الكذب والخداع قد انتشر حتى في الدوائر الرسمية إلى درجة مؤلمة .

ومع ذلك نستطيع أن نصلح حياة الإنسان وننظم أمور المجتمع وأن نخلص الإنسانية من العذاب ، إننا إذا وجهنا ذكاءنا ـ الذي حصرناه في الناحية

المادية ـ إلى الحياة وإلى الروح والقيم المعنوية لحصلنا على نجاح في هذه المجالات كنجاحنا في عالم المادة ، هذا شيء ضروري وأساسي ، إن الأجيال القادمة ستستغرب حقاً من سلوكنا ومن سلوك من كانوا قبلنا وسترثى لنا لأننا صرفنا ـ إلى درجة الإسراف ـ كل طاقاتنا والإمكانيات الكثيرة الموجودة بين أيدينا إلى المادة ولم نستعملها لتنظيم حياتنا النظام الصحيح ـ

وسائل الخلاص :

كيف الخلاص من هذا الوضع ؟ إن الطريق الوحيد لهذا الخلاص هو في تأسيس السلام والصداقة بين القوتين : بين الماضي والمستقبل بين العلم والمعنويات هاتان القوتان اللتان أصبحت كل واحدة منهما عدوة للأخرى نتيجة للآثار التخريبية للمادية الوضعية . إن الأفكار مترددة الآن بين الماضي والمستقبل وبيّن العلم والدين ، فبعضهم يفتش عن الله الذي فقد الطريق إليه ، وبعضهم رفع راية العصيان عليه . إن الجماهير اليوم في أكثر البلدان قلقة بين هذين القطبين وإن آثار ونتائج هذا القلق بادية وظاهرة في الحياة الفردية وفي المدرسة وفي المجتمع وخاصة في البلدان المقلّده التي تبدو فيها هذه النتائج بصورة مفزعة . أما تأسيس الصلح والسلام بين الماضي وبين المستقبل ، بين العلم والدين والمعنويات فإنه سيؤدي إلى إيجاد التوازن في الفرد وفي المجتمع ويعطي اتجاها سليماً للحياة .

من الحق أن نعترف بأن قوة الدين والمعنويات قد ضعفت الآن سواء في الشرق أو في الغرب عما كانت عليه في العهود السابقة ، ولكن العلم الحديث والمدنية الحالية لم يستطيعا ملء الفراغ الذي تركه الإيمان القديم ولم يغنيا الحياة

الإنسانية عن التربية الدينية والمعنوية ، ليس هذا في قدرتها لأن الإنسان يحتاج إلى الإيمان بخير مطلق مجرد وبعدالة سامية ويحتاج إلى الإرتباط بمثل أسمى من عالمه المادي هذا . أما هذا الإيمان وهذه المثل فلا يستطيع الإنسان أن يجدها إلا في التربية المعنوية ، ولا شك أن الدين أكمل هذه المدارس التربوية . لذلك فإن مصلحة البلد بل مصلحة الإنسانية وخيرها وسلامتها ليست في هدم الدين وهدم المؤسسات الدينية بل على العكس في السعي لدوام هذه المؤسسات وتكاملها ووصولها إلى مرتبة إقناع وإشباع الذكاء الإنساني .

لقد أثبتت التجارب أن الحياة الخالية من الإيمان لا تسعد الانسان ، والبلدان التي لا تؤمن بالله تستولي عليها الشياطين - إن الإنسان الخالي من الإيمان ينقلب إلى ذئب مفترس . إن نظام العالم هو في الارتباط بالإيمان بإله غير مادي يهيمن على هذه الطبيعة ، والبلدان المحرومة من هذا الإيمان مصيرها الاضطراب والسفالة والهبوط الروحي والمعنوي .

المراجع

ـ المرسوم الاصلاحي لسنة ١٨٥٦
ـ مجلة سبيل الرشاد .
ـ جريدة لومند الفرنسية .
ـ دستور الاتحاد السوفييتي لعام ١٩٣٦
ـ مجلة الوطن التركي .
ـ دائرة المعارف الأنسكلوبيديا
ـ تفسير الطبيعة لـ (ديدرو)
ـ رجال من التاريخ ـ علي الطنطاوي
ـ فلسفة الحيوان لـ (لامارك) ١٨٠٩م
ـ القوة والمادة لـ (بهنر) ١٨٥٥م
ـ أصل الأنواع لـ (داروين) ١٨٥٩م
ـ الدين والارتقاء لـ (أرنست هيجل) ١٩٠٦ م
ـ الجواب على الكنيسة الإنجليزية ـ عبد العزيز جاويش .
ـ كتاب : الله وجوده وماهيته . Prof. P.Fr. R. Garrigu - Lagrange
ـ الله والانسان والكون ـ عدد من المؤلفين .
ـ إلحاد المستقبل (غيو Guyou) .
ـ المادة والذاكرة ، وأبحاث حول الوجدان ونتائجه لـ (برجستون)
ـ الإنسان ذلك المجهول لـ (ألكسس كاريل)
ـ اضمحلال المذهب المادي للأستاذ إسماعيل فهمي .
ـ إحياء علوم الدين للغزالي .
ـ الإمام مالك حياته وعصره للشيخ محمد أبو زهرة .

- الحاكم التركي الكبير السلطان محمد الفاتح : حياته وعصره ، للأستاذ علي همت بركي .
- الإفتاء والقضاء ، للأستاذ اسماعيل حقي .
- أسس الفقه الحنفي - المسائل المتعلقة بالقياس والدين ، للأستاذ السيد نسيب .
- العقائد النسفية . للنسفي .

— Essai sur Les moeuts

— Visagges de l'Islam, Pat Hapydat Bammate' payot, Lausamme, 1958

— Louis Augustiet (1839-1901)

— A. Fouillee, Histotoite de la philosophie

— Les:

— Formes elementaires de la vie religieuse Durkheim, Alcan, 1925—Quest—ce que la sociologie, Bougle, Paris. Alcan—la Res Ponsabilite, Fauconnet, Paris, Alcan.

— Conflit de la morale et de la veligion, Parsimon Deploige. Paris, Lib. National Reflexions Sur la conduite de la vie, Lib. Plon, Paris.

— Prof. Maurice Halbwarchs, Les origines dusentiment Religieux. paris. lib. Stock (La Culture Moderne) P. 7.

— Louis Weber, Le rythme du progress (Etude Socialogique) paris, lib. F. Alcan, P. 152—Fustel de coularige.

— La Antique, lib. Hachette p. 39 et suite R. Worms, conclusions des sciences sociales paris 1920 lib, Giard, P. 168.

— Salmon Reinach. or pheus (Histoire Generale des Religions) paris, lib. d'education Nationale 1930 P. 13-14

— Spiritualisme et Materialisme, Par Felix Ismard, Paris Reinwald et Cie 1879 - Religion et evolution, Par Ernst Haeckel Paris, Reinwald, 1906 - Le Monisme (Profession de foi d'un naturaliste) Par E. Haeckel, Paris, Schleicher Freres

— Dr. Felix Ismard, Spiritualisme et Materialisme, Paris, Reinwald P. 154.

— La fonction sociale de la religion
"La fonction sociale de la religion" par E.O. James, Prof. D'Histoire et de philosophie des religion's a'L'universite de londres, Payot Paris, 1990.

— "Science et religion", par Emile Boutrou C.E. Flammarion, Paris

— "Les fondements de la religion", Par J.V. Londen, Payot, Paris

الفهرس

الصفحة

رقم الإيـداع ١١٦٣ في المكتبة الوطنية ببغـداد لسنة ١٩٨٨



العـراق بغـداد شـارع المتنبـي
ص ب ١٤٢٣٩ الرمادي هاتف ٤٢١٤٨٢

